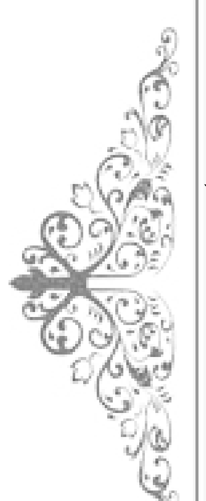

رواية
الحَبِيبْ
مَحْمُودْ الجعِيدِي



عنوان الكتاب : الخَبِيثُ

المؤلف : مَحْمُود الجعِيدِي

المراجعة اللغوية : عبد الهادي عباس

الإخراج الداخلي : رشا عبدالله

تصميم الغلاف :عبد الرحمن حافظ

رقم الإيداع : ٢٧٩٥ / ٢٠١٧

ردمك : 978-977-6549-25-8

الطبعة الأولى: يناير 2017

المدير العام : هاله البشبيشي

المدير التنفيذي : شريف الليثي



دار تويا للنشر والتوزيع





مَحْمُود الجعِيدِي

دار تويا للنشر والتوزيع

سهّير ليالي وياما لفّيت وطُفت

وفي ليلة راجع في الضلام قُمت شُفت

الخوف. كإنه كلب سدّ الطريق

وكنت عاوز أقتله.. بسّ خُفت

(صَلاح جَاهين)

مُقَدِّمَة

الهـواءُ مُبتـلٌّ اغتسـلَ لتـوِّه بمِيـاهِ الأمطـارِ التـي هبطـتْ في غـيرِ موسـمِها الشـتوي..

موقـفُ سـيارات أجـرة يعلـوه سـقفٌ مَعـدني أكلـه الصـدأ ولم يعـد يقـوى عـلى حمايـة مَـن يقـفُ أسـفله..

أصـواتُ المُناديـن وهـم يُعلنـون عـن الجهـاتِ التـي سـتنطلقُ إليهـا السـياراتُ، تختلـطُ بنهيـقِ حـمارٍ يجـرُّ عربـةً خشـبيةً قديمـةً يقودُهـا عربجـي عجـوزٌ رثُّ الثيـاب.

تتناثـرُ لطخـاتٌ مـن الطـين عـلى بنطـالِ أحـد الشـباب، فيسـبُّ ويلعـنُ أم وأب العربجـي العجـوز، والحـمار الـذي معـه.. يُبادلـه الحـمارُ بنهيـقٍ عـالٍ بـدا كـردٍّ بليـغٍ عـن كلِّ السـباب.. أثـار ذلـك حفيظـةَ الشـاب، فحـاول البطـشَ

بالعربجـي لـولا أنْ حـال دون ذلـك بعـضٌ ممـن يُمكـن أنْ نُطلـق عليهـم مجـازًا أولاد الحـلال..

حـين استسـلم الشـاب لمـا وقـع، ابتعـد وهـو يـضربُ كفًّـا بكـفٍّ عـلى سـوء حظـه في أثنـاء ذهابـه لمقابلـة عمـل.. يلمـح الترعـةَ التـي يقبـعُ فوقهـا كوبـري حجـري مـا زال صامـدًا منـذ حقبـة السـتينيات..

يخطـو أسـفل الكوبـري في ذلـك الفـراغِ الـذي اعتـاد المنـادون وسـائقو الأجـرة أن يقضـوا فيـه حاجتَهـم..

تأفـف كثـيرًا وحـاول أن يغـترفَ بعـضَ الميـاه مـن الترعـةِ لأجـل مسـحِ مـا علـق بـه.. يلمـح طفلـةً لا تتجـاوزُ العـاشرة تقـفُ أسـفلَ حافَّـة الترعـة، وقـد ابتلَّـت ملابسُـها وهـي تنظـرُ إلى صفحـة الميـاه، مصدومـة، تتطـوَّح مثـل ورقـةٍ جافـةٍ سـقطت مـن فرعِهـا وقـت نسـمات الخريـف..

كانـت الطفلـةُ زرقـاء العينـيْن، ترتـدي فسـتانًا ورديَّ اللون، وقـد أحاطـت عنقَهـا بعِقـدٍ منظـومٍ مـن الذهـب، تعليقتـه عـلى هيئـة ميـزان..

نـسي الشـاب مـا كان يـودُّ فعلـه.. أصابتـه بالوهـم وفي كونهـا إنسـيَّة مـن بنـي البـشر.. اقـترب منهـا بحـذرٍ، وهـو يطلـبُ إليهَـا الرجـوعَ حتـى لا تسـقط.. لم يبـدو لـه أنهـا

سـمعته أو حتـى شـعرت بـه.. ترنَّحـت واهتـزَّت مثـل فـرع شـجرة في مهـبِّ ريـحٍ شـديدةٍ..

رفعتْ يدَها الصغيرةَ وأشارت..

جـرى ببـصره سريعًـا فـوق يدهـا حتـى انتهـت بـه عـلى صفحـةِ الميـاه التـي بـدَت صامتـةً مثـل أسـفلت طريـقٍ دولي سريـعٍ..

شـمَّر كُـمَّ بدلتـه بإحـكامٍ، ثـم مـدَّ يـدَه في المـاء حيـث أشـارت، وقـد ظـنَّ أنهـا أسـقطت شـيئًا.. بـرودة الميـاه جمَّدت أصابعَـه حـين لامسـها لكنـه أكمـل وغـاص حتـى معصمـه..

لامـس شـيئًا طريًّـا، زلقًـا، وقبـل أن يقبـضَ عليـه أفلـت منـه بسرعـةٍ.. ارتعشـت أعصابُـه ونظـر نحـو الطفلـة المسـتمرَّة في التحديـق.. عـاد يجـولُ بيـده حتـى كاد المـاء أن يُلامـس كتفـه.. أخـيرًا أمسـك بـه.. رفعـه مُتناسـيًا مـا حولـه أو مصدومًـا..

عينـاه جحظتـا وسـقط قلبـه مـن فـوق قمـة جبـلٍ صخـري حـين خرجـت يـده بجثـة فتـاةٍ صغـيرةٍ.. الزمـن دار مـن حولـه ببـطء.. أقسـم فيـما بعـدُ بذلـك.. قطـراتُ المطـر توقفـت في الهـواء مُتحديـةً قانـون الطبيعـة.. الهـواءُ خـرج مـن صـدرهِ فتجمَّـد أمـام عينيْـه، كتلـةً ثلجيـةً رقيقـةً..

جال ببصرهِ بين الجثة وبين الطفلة التي تقفُ بجواره.. هل أصابه الوهمُ بخيالاتهِ أم أنها فقط راحت تتلاشي تدريجيًّا كبخارِ ماء يطفو فوق لوح زجاجٍ أبيض ثم تختفي تمامًا..

حين استوعب الموقفُ قليلًا ودقَّق النظر في الجثةِ مرةً أخرى اكتشف الحقيقة المُفزعة..

إنها جثةُ الطفلة التي كانت تقف بجواره منذ لحظاتٍ.

الفَصْلُ الأَوَّلُ

ليلةٌ أخرى جافةٌ، حارَّةٌ، وصاخبةٌ من ليالي القاهرة.. حيث كل شيء ممكنٌ له أن يحدثَ، فهو يحدثُ، وبكلِّ أريحيَّةٍ مُمكنةٍ.. على الناصية امرأةٌ فقيرةٌ تمدُّ يدَها.. عيناها فقيرتان مُتعبتان.. أخرجُ لها ما جادت به يدي.. تدعو لي بالعمَارِ وطولةِ الأجلِ، وراحةِ البال.. كومة طويلة من الأدعية لو أصابني منها سهمٌ واحدٌ لعِشتُ سعيدًا..

وما يحدثُ في الأسفل لا يحدثُ في الأعلى.. إذ وعلى نفس الناصية ونفس المربع لكن بامتدادٍ راسي حيث الطابق الثاني عشر من تلك العمارة التي يضرب علوها السماء وتلامس السحب المنخفضة، كانت في انتظاري.. (ولاء).. وبما تبقَّى من روحي الميتة رُحت أُضاجعُها على

النحـو الأبشـعِ والأكـثر ألمًـا.. تتـأوَّه فـوق الفـراشِ وتطلـبُ منِّـي المزيـدَ والمزيـدَ مـن الألمِ.. وحـين ظننـتُ أننـي انتهيـتُ هـذه المـرةَ، عـادت ولاطفتْنـي ثـم أشـعلت النـار فيَّ مُجَـدَّدًا..

ومُجَدَّدًا.

أخـيرًا انتهـى نضالُنـا المُحـرَّم، وكلانـا أعلـن استسـلامَه للآخر دون رابـحٍ أو خـاسرٍ حقيقـي.. بعدهـا تمطَّعـت مثـل قطـةِ شـيرازٍ فاخـرةٍ ولثمتنـي بقُبلـةٍ أخـيرةٍ عـلى صـدري ثـم نهضـت تجـرُّ سـاقهَا بإنهـاكٍ.. رميتُهـا ثقيلـةً في أذنِهـا:

- آخر مرة.

لم تلتفــتْ.. اتخــذتْ مجلسًــا أمــام التسريحــةِ تتأمــلُ جســدَها الشــاهقَ العــاري، وحُبيبــات عَرَقــي الــذي مــا زال يلتصــقُ فوقَهــا.. تناولــتْ ســيجارةً طويلــةً لامعــةً تنتمــي لواحــدةٍ مــن المــاركات المســتوردةِ ثــم أشــعلتهَا.. وأشــعلتني معهــا.

ببطـءٍ سـحبتْ نفسًـا عميقًـا تابعتـه في انتظـار أن تُخرجـه لكنهــا احتفظــتْ بــه.. أمســكتْ ثديَهــا الأيمــن وراحــت تتحســسُ اســتدارَته، ثــم رفعتــه قليــلًا كمــن تُحــاول أن تُقيِّــمَ وزنَــه.. امتعضــت قائلــةً:

- بقى أتقل من الأول.. مش كدا؟!

نظـرتُ نحـوه.. تأملتـه للحظـةٍ.. لم يخطـرْ ببـالي شيءٌ كهـذا مـن قبـل.. فقـط كانـت تُعجبنـي اسـتدارتُه وعِنبتـه المسـكرة.. سألتها:

- سليكون؟!

أومأت برأسِها وهي تُراقبني من المرآةِ:

- آه.. عاجبك؟

هــززتُ رأسِي بــلا اكــتراثٍ.. أودُّ إخبارَهــا بــأن هــذا الجــزء فقــد رهبتَــه منــذ فــترةٍ طويلــةٍ وتحديــدًا حينــما زال غطــاؤه الشَّــفافُ ووضحــت ترهُّلاتــه.. هنــاك مــن أخــبرني يومًــا أن ثـدي المـرأة لم يكـن مـن شـظايا الإغـراءِ في المـاضي إلا بعدمـا تمــت تغطيتُــه.

ابتسمت ابتسامةً ذات مغذى:

- مردتش عليا!

تُصمِّـم عـلى إزعاجـي.. أعلـمُ أنهـا مُغرمـةٌ بقوامِهـا إلى حـدِّ الهَـوَس.. أشـحتُ لهـا في ضيـقٍ:

- إنـت مسـمعتيش أنـا كنـت بقـول إيـه؟!.. إحنـا عـلى كـدا و stop

ثم نهضتُ بكثيرٍ من الغضب.. اتجهتُ نحو النافذة لأفتحها قبل أن أتذكر أنني ما زلتُ عاريًا.. عُدت للداخل غير عابئ بضحكتها الساخرة وليدة بيوتِ الدعارة..

يدي لامست روبًا حريريًّا أهدته لي سابقًا.. ارتداؤه الآن هو إعلانٌ أن كل شيء على ما يُرام.. بالطبع كل شيء كان على أسوأ ما يُرام.. انتقيتُ روبًا آخر وأنا ألمحُ خيبتها من طرفِ عيني.. قالت مدافعةً:

- إنت كل مرة بتقول كدا.

- المرة دي أنا بتكلم جد..

تركتْ خُصلةً من شَعْرها تسقطُ على عينيْها دون أن تُعيدَها كما اعتادت، وقالت بعدما استشعرتْ جدِّيتي:

- مالك يا مجدي.. فيه إيه؟!

- افهميني.. دي نهايتنا سوا.

- نهايتنا؟!

- أنا مخنوق.. مخنوق من كل حاجة حتى من نفسي..

- ومني أنا كمان؟

أصابع يدها الباردة تتحسَّس كتفي.. تركتُ صمتي يُجيبها.. عادت وأكملت بنعومةٍ:

- إنت زعلان مني في حاجة.. لو على موضوع الجواز، خلاص مش هفاتحك فيه تاني..

امتعضتُ.. دفنتُ قولَها مع رُوحي الميتة.. لم يكنْ ولن يكونَ هذا هو السبب..

فتحتُ النافذة لتستقبلني أسطحُ المدينة الحسنة فبدت أشبه بكائنٍ أسطوري عملاق..

نظرتُ إلى لافتةٍ إعلانيةٍ برَّاقةٍ تحتلُّ سطحَ العمارةِ المواجهةِ، وتُنيرها مئاتُ اللمبات ترتعشُ أضواؤها وتتوهَّج، ثم تتلوَّى كمن يُنذر بالشرِّ.

تحتضنُني ولاء من الخلف وتلثمُ عُنقي بقُبلةٍ.. تتحكم فيَّ مثل شخصٍ أخرق لعين.. تشلُّ تفكيري لثوانٍ.. لا تجعلني أفكر بشكلٍ سليمٍ.. اتخذت قرار الابتعاد بصعوبةٍ وها هي ذي تُثنيني عنه بسهولةٍ..

وددت لو استطعت أن أصرخ فيها بكلمةٍ واحدةٍ: اخرسي!.. نعم اخرسي.. والآن!.. لكنني لم أقولها.. لم تتحرك بها شفاهي التي أنهكتها القُبل.. القوةُ هي أن تمتلكَ القدرةَ على الفعل وقطعًا أنا لا أملكها.

أتركُ لها زمامَ الأمرِ هذه المرة.. جولةٌ أخرى وآهاتٌ أخرى فوق فراشٍ ملعونٍ.. نعم هو أثقل مما ينبغي..

يُمكنني أن أخبركَ بذلك بكلِّ وقاحةٍ.. لا تقلقي.. فلم يعد ذلك يُثير اهتمامي.. للعلم أعتقد أنك تحتاجين إلى عملية تجميلٍ أخرى، لكن في منطقةٍ مُحرمةٍ.. لا تضحكي!.. أنت تعلمين مدى جدِّيتي في تلك الأمور.

تركتها بعد ذلك تغطُّ في نومٍ عميقٍ وقد أنهكهَا الشبقُ فلم تشعر بي حين تسللتُ من منزلها خلسةً كلصٍّ يبحثُ عن الستر.

في الأسفلِ التقتْ عيناي مرةً أخرى بالمرأةِ الفقيرةِ وهى لا تزالُ تمدُّ يدَها للمارَّة وتدعو للمُحسنين كما دعت لي بطول العمر.. وراحة البال..

لا توجد راحة بال على الأرض..

هكذا صرتُ مُتأكدًا حين ورَدني اتصالٌ من رئيسِي يطلبُ مني الذهاب إلى السجنِ العُمُومي..

كدتُ أن أسبَّه سبةً بذيئةً جدًّا لولا أن أمسكتُ أعصابي.. نظرتُ في الساعة كانت السادسة صباحًا.. أجبتُه:

- الساعة ٦.. مش كان المفروض تعرَّفني من إمبارح..

ردَّ بأن المصور الأول المُكلف قد أُصيب بإعياءٍ واعتذر، وأنه لا يوجد غيري للذهاب من أجل تغطية زيارة لجنةِ حقوق الإنسان إلى السجن.

حاولت أن أتملصَ منه وأتحجج لكني لم أكن قد استيقظت تمامًا فخرجت مني كل الحجج واهيةً غير مقنعةٍ.

- شد حيلك.. عاوز ألحق الطبعة الأولى!

قالها اللعينُ وأغلق الهاتفَ في وجهي..

تنفستُ بحنقٍ ثم نهضتُ من الفراش.. صنعتُ كوبَ قهوةٍ سوداء وشربته في عجلة.. ارتديتُ سترةً صوفيةً ثقيلةً تحسبًا لجوِّ الصباح البارد، ثم نزلت..

أمام مدخلِ العمارةِ شكرتُ نفسي على حُسن ذكائي حينما وجدتُ الجوَّ كما توقعت..

ركبتُ سيارتي مُسرعًا وانطلقتُ..

استغرقتْ رحلتي ثلاث ساعاتٍ كاملةً حتى وصلتُ..

بعد المراجعةِ الأمنيةِ والتأكد من شخصيتي كنتُ قد وصلتُ إلى حجرة مأمور السجن..

اسـتأذنتُ في الدخـول مـن أمـين الشرطـة القابـع أمـام البـاب والـذي نظـر لي بقـرفٍ شـديدٍ حـين أخبرتـه أننـي صحفـي..

في داخـل الحجـرة كان يجلسُ المأمـور عـلى مكتبـهِ مُنتفخ الأوداج وعـلى وشـك أن يطـيرَ للسـماء مـن فـرط إحساسـه المُفـرط بالعظمـة..

في مواجهــة المأمــور كان يجلــسُ أفــرادُ لجنــة حقــوق الإنســان.. كانــت اللجنــةُ مكونــةً مــن ثلاثــة رجــال وامــرأة.. الثلاثـة رجـال كانـوا في مرحلـة الكهولـة وعـلى وشـك المـوت.. المـرأة تقـتربُ مـن سـنِّ اليـأس وتُخفـي وجههَـا المُسـتطيلَ خلـف طـنٍّ مـن مسـاحيق التجميـل..

مـن المفـترض أنهـم شـخصياتٌ عامـة معروفـةٌ لكـن في الحقيقـة لم أتعـرف عـلى أحـدٍ منهـم.. لا أعلـم إن كان ذلـك جهـلًا منـي أو أنهـم فعـلًا أشـخاصٌ مجهولـون.

مـددتُ يـدي أُصافـح المأمـورَ أولًا الـذي صافحنـي بيـدٍ بـاردةٍ وأشـار لي بالجلـوس..

ابتسـمتُ في وجـه الثلاثـة كهـول وصافحتهـم بسرعـةٍ فائقـةٍ قبـل أن أحتـوي كـفَّ المـرأة بـين يـدي.. وحـين لامسـتْ يـدي يدهـا، أدخلـتُ سـبابتي في باطـن كفهـا برفـقٍ وابتسـمتُ

لهـا.. ارتفـع حاجباهـا في دهشـةٍ عندمـا فعلـتُ ذلـك.. لكنهـا دهشـةٌ مصطنعـةٌ.. أرى الشـبق في عينيْهـا.. كانـت امـرأةً عريضـةً لكـن سـاخنة جـدًّا.. تسـتهويني مثـل تلـك النسـاء.

- إنت جااااي تهزَّر..

قطـع سـيلَ أفـكاري صراخُ المأمـور.. في البـدء أجفلـتُ في مـكاني وظننـتُ أني المقصـودُ فكـدت أن أزلَّ بلسـاني مدافعًـا عـن نفسي بـأيِّ هُـراء، لكـن لاحظـت بسرعـةٍ أنـه يتحـدث في هاتفـهِ ويُهـدِّد ويتوعَّـد (ابـن كلـب) مثلـما راح يدعـوه عقـب كلِّ سبَّةٍ..

حـين انتهـى المأمـورُ مـن هـذا الـ (ابـن كلـب) ابتسـم في وجوهِنـا مُحـاولًا أن يبـدو سـمحًا رقيقًـا، وقـال بحـبٍّ:

- ناس ولاد كلب..

ثم حوَّل وجهَه نحوي:

- إنت اللي الجرنال باعتك؟

- مضبوط يا باشا.

أجبتـه، وأنـا أجـري ببـصري فـوق سـاق المـرأة الأملـس متمنيًـا أن أصـلَ إلى منبتـهِ الطـري.

- ليا كلام معك في الآخر..

قالها بصرامةٍ شديدةٍ، فابتلعتُ ريقي بصعوبةٍ وحاولتُ أن أبتسمَ مُحاولًا اصطناع الثقة فلم أستطع..

تناول المأمورُ قُبعته التي يتوسطها النسرُ الذهبي ووضعها تحت إبطه وأشار إلينا:

- اتفضلوا يا بهوات!

ثم اقتادنا إلى عنابر السجنِ يتقدمه كرشُه الضخم، شارحًا لنا النظامَ المعمولَ به وجزءًا من لوائح مصلحة السجون التي تُشدد على أهمية احترام حقوق الإنسان، وكيف أنه يبذلُ قصارى جهده من أجل ذلك، وإلى أيِّ مدى يُحب المساجين السجن؛ لدرجة أنه قصَّ علينا قصةً عن أحد المساجين وكيف بكى يوم خروجه بعد انقضاءِ مُدته..

قامت اللجنةُ بإجراء بيانٍ استقصائي وسؤالِ بعض المساجين عن أحوالهم، بينما مارستُ ما جئتُ من أجله والتقطت بعض الصور السريعة مُحاولًا أن أبدو كمحترفٍ حقيقي..

بعد ذلك ذهبنا إلى حوش السجن حيث لم نفعل شيئًا سوى الاستماعِ لنكات المأمور، ثم مررنا على قاعة الطعام وتفقدنا نوعية الأكل.. في الحقيقة كان كل شيء يبدو

رائعًا وجميلًا.. الضباط في غاية الطيبة، المساجين في غاية السعادةِ.. الطعام فراخ مشوية وسلطة بابا غانوج.. كادت عيناي تدمعان من فرط النفاقِ والكذبِ المفضوح.

تناولنا الفراخ المشوية وللأمانة كانت لذيذةً جدًّا بحيث أنستني تعب اليوم كله.. علمت فيما بعد أن مَن طهاها أحد المساجين وكان يعملُ في مطعمٍ سياحي واتهم بطبخ لحم الحمير..

حين انتهينا من الجاتوه طلب مني المأمور أن أريه الصور التي التقطتها قبل أن أقوم بنشرِها.. كان يخشى أن أكونَ قد التقطت صورة لا تروقه.. أخبرته أنني أحتاجُ إلى مكانٍ خاص لأتمكنَ من فرزها أولًا.. طلب مني أن أذهبَ إلى مكتبه.. ابتسمتُ في وجههِ بسماجةٍ، وذهبتُ..

في طريقي جاءت معي المرأةُ بعدما تعللت بأنها نسيت تليفونها..

سرنا معًا يتبعنا عسكري يُخفي ورك دجاجةٍ داخل بنطالهِ.. قبل أن ندخل مكتب المأمور ناولته علبة سجائري فتلقفها مني في سعادةٍ.. طلبت منه أن يأتي لنا بفنجانيْ قهوة وناولته عشرة جنيهاتٍ.. طار من أمامي مسرعًا كالحمامة ليُحضِرَ ما طلبتُ.. غمزتُ للمرأةِ وسحبتُها للداخل.

- أنت وقح..

قالتها.. لكنها لم تعنيها..

- بس لذيذ..

هكذا رددتُ عليها..

وفوق مكتب المأمور مارسنا الحبَّ كما أُنزل.. كانت كما توقعتُ.. (رائعة).. شفتاها رطبتان.. بشرتُها ناعمةٌ.. تضاريس جميلة وصغيرة.

فجأةً.. دخل علينا العسكري.. تسمَّر في مكانه.. سقطت منه صينيةُ القهوة على الأرضِ في دويٍّ مُزعجٍ.. ورك الدجاجة أيضًا سقط..

جحظت عينا المرأة وتجمَّدت حتى ظننتُ أنها ماتت..

بسرعةٍ شديدةٍ ارتديتُ بنطالي وعدَّلت لها ملابسَها، ثم جذبتُها معي للخارج.

- مش ضروري القهوة.. بس امسح اللي اندلق عشان المأمور ميزعقش..

قلتُها للعسكري وأنا أربت على كتفه.. ثم استطردتُ:

- الورك وقع الأرض..

وطرتُ من أمامهِ بسرعةِ الصاروخ.

- أنا هويدا.. إنت اسمك إيه؟

سألتني، وهي تُحاول اللحاق بي.. لم أشأ إخبارَها.. قلتُ:

- وهيفيدك اسمي بإيه..

ابتسمتْ:

- طيب، هشوفك تاني؟

تركتُها أمام بوابة الخروج، وأنا أُجيب:

- سيبيها بظروفها..

ثم استدرتُ عائدًا لغرفة المأمور دون أن ألتفت نحوها أبدًا.

أثناء عُبوري حوش السجن استوقفني مسجونٌ يرتدي البذلة الزرقاء.. كان أسمر الوجه، هزيلَ الجسم، قصيرًا إلى حدٍّ ما.. تكلم بصوتٍ مُرتعشٍ خافتٍ:

- مساء الخير يا أستاذ..

قلتُ بحذر:

- مساء النور..

- أنا (حسن)

ثـم أخـبرني أنـه مسـجونٌ في قضيـة سرقـة.. كـدت أتركـه حـين قـال ذلـك.. لكنـه أخـبرني أنـه فعلهـا بدافـع الاحتيـاج لعـلاج والـده. إذا مـا حاولنـا أن نصـف الإجـرام إلى أبيـض وأسـود، فهـذا الشـاب زُجَّ بـه في السـجن بدافـع جريمـة بيضاء.

أصغيـت إلى بقيـة حديثـه باهتـمامٍ عندمـا قـال بصـوتٍ حزيـنٍ:

- أبويـا مـات النهـاردة.. وللأسـف إدارة السـجن رفضـت توافـق لي أن أحـضر جنازتـه بسـبب زيـارة اللجنـة..

لم أجـد لـديَّ ردًّا عـلى كلامـه، فاكتفيـتُ بالصمـتِ.. أخـبرني أنـه يخـشى ألا يُلاقـي والـده الاحـترام الـكافي أو اللائـق عنـد دفنـهِ، ثـم قـال لي بلهجـةٍ مُتوسـلةٍ:

- ممكن تروح مكاني؟

كان الطلب صعبًا.. لا أعرفُ لماذا اختارني:

- شكلك طيب وابن حلال..

هكـذا فـسَّر لي حينـما سـألتُه عـن سـببِ اختيـارِه لي.. وددتُ أن أرفـضَ.. أنـا لا أمتلـكُ الشـخصيةَ القـادرةَ عـلى التـصرُّف في مثـل تلـك المواقـف.. لكـن كلمـة لا كانـت ثقيلـةً فلـم أسـتطع قولهـا:

- حاضر.

احتضنني، وكادت دموعُه تُغرقني مثلما أغرقتْ وجهَه..

خرجـتُ مـن السـجن، وتوجَّهـتُ مبـاشرةً إلى العنـوان بعدمـا أرسـلتُ الصـور بالإيميـل إلى الجريـدة..

وصلـتُ بعـد سـاعةٍ ونصـف مـن القيـادة المتواصلـة.. صرتُ مرهقًـا مـن كـثرة القيـادة هـذا اليـوم.

توقفـتُ أمـام المنـزل.. كان العثـورُ عليـه سـهلًا.. يكفـي أن أسـمعَ صـوتَ القـرآن الـذي يخـرجُ مـن كاسـيت قديـمٍ، وأشـاهد صوانًـا صغـيرًا لأعلـمَ أننـي في المـكان الصحيـح..

صعـدتُ مُسرعًـا وسـلَّمتُ عـلى الموجوديـن بـودٍّ شـديدٍ.. أخبرتهـم أننـي صديـق حسـن وقـد أوكلنـي بـكلِّ مـا يلـزم، فاسـتراحوا جميعًـا وتنفَّسـوا الصعـداء كأننـي أنقذتُهـم مـن ورطـةٍ كبـيرةٍ..

أخـبروني أن مـن المهـم أن أتواجـدَ أثنـاء الغُسـل.. كنـتُ أعتقـدُ أن الأمـرَ يقتـصرُ عـلى تشـييع جثـمان ودفـع بعـض الأمـوال، لكـن الموضـوع كان أكـبر.. أخـبروني أيضًـا أن الميـت كان يعمـلُ في أمـور السـحر والجـن ولـه الكثـير مـن الكرامـات، لهـذا يخـشى الجميـعُ الدخـول. أعصـابي انهـارت حـين علمـتُ ذلـك لكنـي حاولـتُ أن أبـدو هادئًـا وواثقًـا مـن نفـسِي.. قـرأتُ الفاتحـةَ بصـوتٍ عـالٍ، ثـم دخلـتُ.

كان التغسيلُ يتم في غرفةِ النوم.. في الداخلِ لمحتُ المُغسل ومُساعده.. كان المُغسل رجلًا كبيرًا في السن تبدو أماراتُ الصلاح والتقوى على وجهه.. مُساعده كان شابًّا أحدب حاد الملامح، يُطيع كل ما يقوله المُغسل بلا نقاشٍ، لا يتحدث مُطلقًا، ويكتفي بإشاراتٍ من يده تعجَّبت لها قبل أن أكتشفَ فيما بعدُ أنه أبكم.

بعدما انتهيا من تجهيز الماء والأقمشة شرعا في العمل.. أخبرني المُغسل أن الرجلَ يُكفن في ثلاثة أثواب بيضاء من القطن، بينما المرأةُ تُكفن في خمسة أثواب.. لا أعلم فائدة ما أخبرني به إلا أنني أومأتُ برأسي مُتصنعًا الفهم والحكمة..

كان جسدُ المرحوم متصلبًا ولا يُمكن معه خلع ملابسه.. تحرَّك المُساعد بلا أدنى قلقٍ وناول المُغسل مقصًّا كبيرًا.. قام المُغسل بارتداء قُفازيْن على يديْه وراح يقصُّ ملابس الميت.. بدأ بالكُم الأيسر حتى وصلَ إلى الرقبة، ثم الكُم الأيمن حتى الرقبة أيضًا، بعدها قام بقلبِه على جانبِه الأيسر وسحب الملابسَ مع المحافظة على سترِ العورة..

ثم راح يعصرُ بطن الميت برفقٍ ثلاث مرَّاتٍ ليُخرج الموجودَ به، وقام بغسل قُبله ودُبره بالماء الذي أخذ ينسابُ عليه من إناءٍ نُحاسي يحمله مُساعده..

عند ذلك كدتُ أفرغُ ما في معدتي.. تناولتُ مُصحفًا وانشغلتُ بالقراءة فيه على صوت صبِّ الماء فوق الجثمان.. حين انتهيا، طلبا مني أن أنادي الناس:

- كلنا لها..

قالها المُغسل وهو ينظرُ للجثةِ الملفوفةِ في الكفن مثل نظرة الرَّسام للوحتهِ.

كان الليلُ قد تجاوزَ ثلثه الأول حين انتهينا من الدفنِ ثم دخلت إلى محلٍّ وجباتٍ سريعةٍ في طريقِ عودتي..

وتجاوز ثلثه الثاني حين هرعت وأنا ألف ذراعي المجروح بقطعةِ قماشٍ مُتلفتًا حولي في ذعرٍ قبل أن أركب سيارتي.

في الطريقِ توقفتُ بعد ذلك أمام صيدليةٍ ابتعتُ منها علبة (فاليوم)[1] ثم وصلتُ إلى شقتي الصغيرة القابعةِ بالدور الثالث بعمارةٍ حديثةِ الإنشاء، اشترتها لي ولاء منذ عامٍ ونيف.. هدية، مكافأة.. سمِّها كما شئتَ، فالمُسميات لا تعنيني.

(١) الفاليوم: دواء يُستخدم لعلاج: القلق، الأرق، الألم

في الداخل سكبتُ على وجهي نصف زجاجة برفان لأزيلَ عني رائحةَ الموت.. تحترقُ عيناي قليلًا قبل أن تغدو الرائحةُ معدومةً..

نظرتُ في المرآةِ الكبيرةِ التي تعلو حوضَ الوجه.. أفحصُ عينيْن انسحبتا إلى الداخل ووجهًا أسمر مُمتقعًا حفرته تعاريجُ الزمن.. خيطٌ من الشّيب تخلّل حلقات شَعر رأسِي.. لم أكن كبيرًا في السن إنْ كنتَ تهوى معرفة الأعمار، كما أنني لستُ مفتولَ العضلاتِ، ولكنني قادرٌ إلى حدٍّ ما على أنْ أخوضَ قتالًا وأتحمَّل اللكماتِ.. لا يُوجد في حياتي ما يُمكن أنْ أذكره.. لم أحقق نجاحًا أو إنجازًا يستحق الذّكر في حياتي.. فقط هي سنون تمضي وأخرى تعبرُ ومعها فعلتُ كلَّ ما يُمكن فِعله.. أكلتُ.. ضاجعتُ.. لهوتُ.. ماذا أيضًا.. ماذا يستحق الحياة من أجله بعد ذلك.. فقد كل شيء قُدسيته وجمالَه وصار ماسخًا قبيحًا.. لم يتبقَّ أمامي سوى ظلام الليل والأفكار.

أفكرُ في الموتِ.. الانتحارِ بمعنى ثانٍ.. قد أجدُ جديدًا.. حكايةً أخرى.. سردًا مختلفًا.. وربما.. ربما، أنثى جميلة لم أزرها بعدُ.. ابتسمتُ حين ورد إلى ذهني ذلك.. رحلة الموت من أجل أنثى.. اسم يصلحُ لفيلمٍ تِجاري بحتٍ.

نظرتُ نحو علبة (الفاليوم).. ابتلعتُ ريقي.. النداء المجنون يطرقُ باب عقلي ويصرخُ بتوحُّشٍ، افعلها، ضعْ كلَّ ما تبقَّى من حبوبٍ في يدك واقذفْ بها في فمك.

ابتلعتُ حبتيْن دفعةً واحدةً.. ربما بقية العلبة كفيلةٌ بتحقيق موتةٍ هادئةٍ لي.. لكنني لن أموتَ فوق فراشي كرجلٍ بائسٍ يتم اكتشافُ جثته حينما تفوحُ رائحتُها.. هذه مهانةٌ لا أقبلها لجسدي حتى وإن كنتُ لن أكونَ شاهدًا عليها..

طوَّحتُ بقية العلبة بعيدًا..

اقتربتُ من النافذةِ المفتوحةِ التي راحت تنقبضُ وتنبسطُ على نحو متواصلٍ.. لا أعلم إذا ما كنتُ أترنح حقًّا أم أنه فقط شعورٌ كاذبٌ واستجابةٌ عكسيةٌ لمفعول الفاليوم.

وقفتُ على حافة النافذة.. تضربُني نسمةُ هواء باردةٌ.. الليونةُ قبل الصفعة.. القفزُ لم يكن يومًا من هوايتي.. بقعة دم وأشلاء في منتصف الشارع مُغلفة بسيرةٍ قذرةٍ ستغدو كل ما يذكره الناس عني..

لا بد لشريط ذكرياتي أن يمرَّ سريعًا أمام عيني..

المَشاهدُ تأتينِي منه متقطعةً بالأبيض والأسود.. لا يُمكن لأحدٍ أن يفهمَ كُنهها سواي، لكن قبل أن تنتهي حياتي أردتُ أن أبوحَ بشيء.. صحيح أنني أقفُ في مكانٍ لا يُوجد به صريخ ابن يومين أو حتى ثلاثة أيام، لكنني فقط أريد البوْح..

رفعتُ صوتي عاليًا وأخرجتُ كلَّ ما يحيكُ في صدري..

صرتُ الآن مُستعدًّا للموت..

رفعتُ وجهي إلى السماء وأرخيتُ جسمي.. فجأةً.. انسحب الدم كله من عروقي وضرب في قمةِ رأسي ثم سقطتُ.

الفَصْلُ الثَّانِي

قبضةُ صقيعٍ ضربت وجهي فاستيقظتُ على إثرها.. ألقيتُ سبةً بذيئةً جدًّا وأنا أرى ولاء تحملُ في يدِها زجاجة ماء مُثلجةً فارغةً حتى المنتصف.. مسحتُ الماء الذي علق على وجهي، بينما قالت وهي تتخذ مقعدًا في مواجهتي:

- أنا فكَّرتك مُتّ.

نهضتُ من على الأرض وأنا أحرّك عنقي ذات اليمين تارةً وذات الشمال تارةً أخرى مُهشِّمًا الكتلَ الأسمنتية التي جمَّدته.. أجبتُها:

- والنعمة الموت ده عبيط.. عمَّال ياخد الناس الحلوة وسايبني..

- إنت عاوز تموت؟!

- آه.. ما تيجي تموتي معايا!

نظـرتُ إلى يـدي المجروحـة، فحاولـتُ أنْ أخفيهـا بطريقـةٍ عفويـةٍ.. سـألتْ:

- إيه اللي عورك؟

- مفيش.. كنت بعمل سلطة والسكين عورتني..

ثـم تركتُهـا وذهبـتُ لأخـرجَ كل قـذارة البشريـة.. حـين عـدتُ مـن الحـمَّام كانـت قـد انتهـتْ مـن إعـداد وجبـة إفطـارٍ عـلى غـير عادتهـا.. اكتفيـتُ بكـوب قهـوة سـوداء مـع سـؤالٍ لهـا:

- خير؟!

اقتربتْ مني بليونةٍ، ثم أحاطتني بذراعيْها:

- أكيد خير يا مجدي.

ثم أخبرتني أنها ترغبُ في زيارة أهلها.

كانـت ولاء متمـردةً منـذ صغرهـا.. فرسـة جامحـة.. ذكية.. تُحـبُّ كلَّ مـا هـو جديـدٌ ومختلـفٌ.. رأى أبوهـا أن كل ذلـك لا يليـقُ بابنتـه التـي تعيـشُ مراهقتهـا ومـؤشرٌ خطـيرٌ عـلى سُـمعتها فيـما بعـدُ. لـذا، وعمـلًا بنصيحتـه قامـت الأم بإخـراج

ولاء مـن مدرسـتها الثانويـة وأغلقـت عليهـا تمامًـا، فمُنعـت مـن الخـروج أو زيـارة الأصدقـاء.. كان ذلـك أمـرًا مؤلمًـا وقاسـيًا بالنسـبة لهـا.. ولأن كل شيء مُقـدر لـه أنْ يحـدث فهـو يحـدث، لـذا فقـد هربـتْ مـن المنـزل وتركـتْ خلفهـا رسـالةً تعتـذرُ وتـشرحُ لهـم الأسـباب.. حـين وصلـت القاهـرة وبعـد أن ذهبـت سـكرةُ ونشـوةُ الهـرب أدركـت أي مـأزقٍ أوقعـت نفسَـها فيـه.. فكَّـرت أنْ تعـودَ أدراجَهـا، لكـن نهايـة فيلـم (دعـاء الكـروان) لا تـزال تتذكرهـا.. مـن حُسـن الحـظ أنهـا كان لديهـا كل المؤهـلات التـي تُمكنهـا مـن النجـاح في مجتمعنـا الشرقـي.. **مؤخـرةٌ** سـمينةٌ.. صـدرٌ ناهـدٌ.. بـشرةٌ بيضـاء كالحليـبِ.. وكل هـذا مُغلـفٌ بسـلوفان مـن الرقـةِ والـدلال..

في البدايـة عملـت في مطعـمٍ صغـيرٍ، وانتقلـت منـه إلى بوتيـك ملابـس حريمـي لينتهـي بهـا الحـالُ في شـقق وأحضـان رجـالٍ مُختلفـين.. صنعـت ثـروةً جيـدةً ثـم بعـد فـترةٍ أصيبـت بمـرضٍ في الـدم كادت أن تفقـد معـه حياتَهـا.. بعـد أن شُـفيت ذهبـت للحـج وكرَّسـت نفسَـها للتعبـد.. أخبرتنـي أنهـا ظلـت ليـاليَ طويلـةً تبـكي تحـت أبـواب الكعبـة..

حين عادت من الحج افتتحت مصنعًا صغيرًا للملابس وتوقفت عن ممارسة الدعارة تمامًا.. آسف.. ليس تمامًا.. لم يسلم الأمر من بعض زبونٍ عابرٍ يحملُ الكثير من الرز، أقصد الكثير من الأموال.

التقيتها أول مرةٍ أمام بوابة مصنعها.. كنتُ وقتها ما أزال صحفيًّا تحت التدريب، أعكفُ على تحقيقٍ صحفي لا أهمية له.. توطدتْ عَلاقتنا تدريجيًّا، وفي اليوم الأول الذي تم تعييني فيه بالجريدةِ أصرَّت على أن نحتفل معًا.. لم أكن أتخيل أن احتفالي معها سينتهي بمواقعَتها داخل مكتبها ومن خلفنا كانت أصواتُ ماكينات الخياطة تُغطي على صوتِ تأوُّهاتها..

تذكَّرتُ كلَّ هذا حين أكملتْ قائلةً:

- وعاوزاك تيجي معايا..
- آجي أعمل إيه.. إنتي مجنونة؟!
- بُص يا مجدي.. أنا خرجت من بيتنا هربانة.. الحل الوحيدُ عشان يتقبلوني تاني، إني أرجع وأنا متجوزة.

ثم تقول لي إن والدها مات ولم تره.. وقد علمت أن والدتها مريضةٌ وترغبُ في رؤيتها فربما تكون المرةَ الأخيرة..

ترددتُ.. قلتُ:

- لكن موضوع الجواز إنتي عارفة رأيي من زمان.
- هنقولهم إنك جوزي بس.. ومفيش حد طبعًا هيقولنا إنه عاوز يشوف قسيمة الجواز..

فكرت.. نظرتُ في عينيْها.. التوسل والرجاء كانا يسبحان برفقةِ دموعٍ سالت فوق وجنتيْها.

- ماشي.. إمتى عايزانا نروح؟

هلل وجهُها:

- بُكره.

استدركتُ في كلامي سريعًا:

- بس ليا طلب!

نظرتْ نحوي مُتسائلةً وهي تمسحُ عينيْها:

- اللي إنت عاوزه..
- لمَّا نرجع.. تيجي ننتحر سوا!

أجابت دون تفكير:

- موافقة.. هفتح لك الشباك، ترمي نفسك منه، وأنا وراك علطول..
- إنتي بتهزَّري.. صح؟!!

ـ يعني أسيبك تهزَّر لوحدك يا حبيبي.

ثم وضعت يدَها على فمها لتُخفي ضحكتهَا.

اليـوم التـالي.. جـاء سريعًـا.. لا أعـرفُ كيـف.. فقـط حـين أشرقـت الشـمسُ انطلقنـا معًـا..

لم أكـن أعلـمُ الطريـق جيـدًا لكـن بكثـيرٍ مـن التكنولوجيـا الحديثـة المتمثلـة في الخرائـط الإلكترونيـة، وبقليـلٍ مـن سـؤال المـارة اقتربنـا عـلى الوصـول.. مرَرنـا خـلال ذلـك عـلى عـدةِ مـدنٍ مشـهورةٍ لم أحلـم يومًـا بـأن أدخلَهـا.

في الطريــقِ عكفــتُ مــع ولاء عــلى رســم ســيناريوهات وحـواراتٍ متعـددةٍ حـين لقـاء الأهـل.. سـتكونُ هنـاك أسـئلةٌ كثـيرةٌ مـن نوعيـةِ مـاذا أعمـلُ حتـى أبـررَ ثمـنَ السـيارةِ الفارهـةِ التـي أقودُهـا والملابـسِ الفخمـةِ التـي ترتديهـا ولاء.. أن أقـولَ إننـي لا أعمـلُ لهُـو عـارٌ بالتأكيـد.. ربمـا حكايـة عـن نجاحـي في تأسـيسِ شركـةٍ للاسـتيراد والتصديـر هـي الأنسـبُ، سـهلة الحـكي وقابلـة للتصديـق.

قالت ولاء وهي تبتسمُ:

ـ عليًّا النعمة إنت شكلك هتفضحنا!

ـ يعنـي لازم تقـولي إن أهلـك أصلهـم صعايـدة.. عـلى كـدا لـو اكتشـفوا إني مـش جـوزك رقبتـي هتطـير فيهـا.

أطلقت ضحكةً قصيرةً، ثم قالت:

ـ متقلقش.. أنا هكون معاك دايمًا..

لم أكـن في حاجـةٍ لسـماع تلـك الجملـة الأخـيرة، أعلـم أنهـا يمكـن أن تُقنـع أي شـخصٍ بمـا تقـول.. لـو أخـبرتْ أحدهـم أن الشـمس لـن تُـشرق غـدًا لصدَّقهـا.

علمـت منهـا أن لهـا أخًـا واحـدًا يُدعـى (طاهـر)، وأن أمهـا تُدعـى (راجيـة)، ثـم راحـت تحـكي لي بعـض التفاصيـل عـن قريتهـا.. مـن خـلال كلامِهـا اسـتطعت أن أكـوِّنَ صـورةً ذهنيـةً ناقصـةً عـن شـكل قريتهـا، لكـن لم تكتمـل تلـك الصـورةُ إلا حـين وصلنـا.. باختصـار كانـت قريـةً مصريـةً حديثـةً أصابهـا عتَـهُ القـرن الحـادي والعشريـن فصـارت مسـخًا قبيحًـا مـن المدنيـة والتخلـف.

كنـا قـد وصلنـا مـع الدقائـق الأولى لغـروب الشـمس.. توقفنـا بالسـيارة أمـام منـزلٍ كبـيرٍ في نهايـة القريـة تحرسُـه بوابـةٌ حديديـةٌ حديثـةُ الصنـع ويقـع عـلى أطـراف القريـة.. خلـف المنـزل مبـاشرةً لمحـتُ وجـه الشـيطان!

كان المنزلُ مُستطيلًا، أشبه بعلبة ثقاب مكونةٍ من ثلاثة أدوارٍ، له بوابةٌ حديديةٌ حديثةُ الصنع، أظن أنها قد صُنعت في فترة الانفلات الأمني إبان ثورة يناير.

طرقت ولاء الباب برويَّةٍ، بينما كنتُ أقفُ بجوارها مُرتبكًا وأنا أنظرُ بين الحين والآخر إلى التل الأحمر الكبير الموجود خلف المنزل بمسافةٍ متوسطةٍ نسبيًّا.. أخبرتني ولاء أنهم يُطلقون عليه وجه الشيطان..

أوشكتُ أن أسألها عن سبب التسمية حين فُتحت البوابة وظهر من خلفها (ولاء أخرى) أكلها الزمنُ وألبسها ثوبَ العجز ونظارةً طبيةً كعب كوباية.

من المفترض أن هذه (راجية)، ومن المفترض أيضًا أن تصرخَ من الفرحة أو الصدمة أو حتى تسقط على الأرض مغشيًّا عليها حين تُشاهد (ولاء):

- إنتوا مين؟

سألتنا ببرودٍ شديدٍ وهي تجولُ ببصرِها بيننا.. هذه ابنتك أيتها العمياء الحمقاء.. أقسم أنني كدتُ أقول ذلك لولا أن استبقتني ولاء:

- إزيك يا أمي!

اتسعت عينا راجية وارتعشت شفتاها.. نعم هذا هو ردُّ الفعل المطلوب.. أنا سعيدٌ الآن.. أكملت ولاء وهي تفتح ذراعيْها:

- أنا ولاء.

قالت راجية مصدومةً:

- ولاء مين؟

ثم صمتت واستمرَّت تنظر في وجه ابنتها غير مُصدِّقةٍ.. بعد لحظةٍ رددت وكأنها قد أفاقت من حلمٍ طويلٍ:

- ولاء!

واحتضنتها بشوق غياب السنين.. في الحقيقة كان مشهدًا تراجيديًّا لا يليق إلا بأفلام الستينيات.

انتظرت حتى انتهت كلتاهما من البكاء والنواح.. في تلك الأثناء أتى رجلٌ ضخمُ الجثة، يتصبَّب العَرقُ فوق جبينهِ ويرتدي ملابسَ داخليةً التصق فوقها ترابٌ أحمر، راح يُتابع ما يجري وهو يرفعُ حاجبَه بينما شفتاه تتلويان في ضيقٍ.. احتمالٌ كبيرٌ أن يكون هو أخاها (طاهر).. واحتمالٌ ضئيلٌ أن يكون زوج أمها.. تمنيتُ في قرارة نفسي أن يكون الاحتمالُ الأخيرُ هو الصحيح حتى أرى الصدمة على وجه ولاء.. شرير أنا.

بالفعل كان هو..

ـ طاهر..

احتضنتــه ولاء وهـــي تنطــقُ باســمهِ، فاســتقبلها بــترددٍ جعلهـا تكتفـي بعـد ذلـك بقُبلـة عـلى خـدِّه وهـي تسـأله:

ـ عامل إيه؟

ـ في نعمة كبيرة.

التفت نحوي مستفسرًا في صمتٍ:

ـ مجدي.. جوزي..

أجابتــه ولاء بسرعــةٍ.. صافحتُــه بقــوةٍ وأنــا أنظــرُ إليــه بطــرف عينــي مُحــاولًا أن أبــدو واثقًــا.

راجيــة جذبــت معهــا ولاء إلى الداخــل دون أن تلتفــتَ نحــوي مــما أشــعرني أنهــم قــد نســوني..

سرتُ خلفهـم فعبرنـا في البدايـة مدخـلًا ضيقًـا كالدهليـز حتـى وصلنـا إلى صالـةٍ مربعـةٍ تـم تنظيمُهـا مثـل "قعـدة عـربي" حيـث تغطـت الأرضيـةُ بحصـيرةٍ ملونـةٍ كبـيرةٍ ومـن حولهـا عـدة وسـائد ومسـاند إسـفنجية عـلى شـكلِ دائـرةٍ مكتملـةٍ.. في نهايـة الصالـة لمحـت كمودينـو أثريًّـا عملاقًـا

بحجـم سـيارة وقـد تراصـت فوقـه الكثـير مـن المشـغولات الفضيــة والنحاسـية ذات الطابـع الفرعــوني.

بعــد ذلــك صعدنــا إلى الطابــق الثالــث حيــث ســنبيتُ تلــك الليلــة، وفي الصبــاح ســيكون هنــاك شــأنٌ وكلامٌ آخــر كــما أخبرتنــا راجيــة.. لم أجادلهــا فقــد كنــت مرهقًــا.. لكنــي فقــط تعجبــتُ مــن صعودنــا إلى الــدور الثالــث، مــن الطبيعــي والمعتــاد أن تكــون غرفــةُ الضيــوفِ في مواجهــةِ المدخــل أو حتــى في الــدور الأول ليتســنَّى لأهــلِ البيــتِ التحــرك بحريــةٍ.

الــدور الثالــث كان عبــارةً عــن شــقة لهــا بــابٌ قديــمٌ مصنــوعٌ مــن الخشــب الــذي نخــره الســوسُ..

مــدَّت راجيــة يدهــا إلى صدرهــا وأخرجــت خيطًــا صغــيرًا ينتهــي ببضعــة مفاتيــح، انتقــت أحدهــا وأدارتــه في القفــل.. ســبقتنا في الدخــولِ ثــم أشــعلت النــور وأشــارت إلينــا بــأنْ نتبعَهــا..

اضطــررتُ إلى أن أحنــي رأسي حتــى أدخــلَ، فقــد كان البــابُ قصــيرًا لا يُناســب شــخصًا طويــلًا مثــلي..

بمجــرد أن دخلــت أنــا وولاء حتــى أغلقــت علينــا راجيــة البــاب بسرعــةٍ وســمعت صــوت المفتــاح وهــو يــدورُ مــن جديــدٍ داخــل القفــل.

- حبسونا!

قلتُها، وأنا أبتسمُ لولاء التي امتقعَ وجهُها.

- ربنا يستر!

بالفعل، ربنا يستر.. ما حدث الآن لا يُبشر بالخير.

بالنسبة للشقة التي احتجزنا بها، فقد كانت متربةً وجوُّها خانقٌ.. الأثاث بها قليلٌ وبسيطٌ إلى أقصى حدٍّ.. الجدران تقشَّرت ألوانُها وبهتت إلى حدِّ الضياع. أما السقفُ فقد سكنته الكثيرُ من العناكب والقليلُ من السحالي.

- شايفه السحالي يا ولاء.. دي سحالي حبنا!

اللعنة لم أفقد خِفة ظلي بعدُ.. قالت ولاء بحنقٍ:

- إنت هتهزر!

ثم دارت بسرعةٍ في كل الأرجاء وفتحت كل الأبواب وفي النهاية أشارت لي:

- أوضة النوم أهي.

وشرعتْ في ترتيب السرير وإزاحة الحشراتِ التي كانت تنامُ فوقه في سلامٍ، ثم دخلتْ في نومٍ مُتذبذبٍ؛ بينما قضيتُ الليل يقظًا من كثرة التفكير.

حين أقبل الفجرُ كنتُ قد أُنهكتُ جسديًّا وعصبيًّا..

نظرتُ إلى ولاء التي استيقظت شاحبة الوجه.. أخبرتني أنها حلمت حلمًا مُزعجًا.. حين سألتها عن فحواه، قالت إنها لم تعد تتذكره.. قرَّرت من الأفضل أن أبدو مُتفائلًا.. قلتُ بمرحٍ:

- أكيد هنفطر عسل نحل ومشلتت..

ابتسمتْ بمرارةٍ ولم تُجبْ.. أكملتُ قائلًا:

- ولدتك بخيلة ولا إيه!

قلتُها، ثم فتحتُ نافذة الغرفة لتطالعني بيوتُ القريةِ غير واضحةٍ في غبشةِ الفجر..

رأيتُ طاهر يخرج من المنزل مرتديًا جلبابًا أبيض بالكاد يصل إلى عقبيْه ثم يتوجه نحو المسجدِ للصلاة..

عدتُ للداخل مُستكملًا حديث التشاؤم مع ولاء..

بعد ساعةٍ تم إطلاقُ سراحنا، حيث جاءت راجية وفتحت لنا ودعتنا للإفطار..

وجدنا طاهر وقد سبقنا في الجلوس وقد رسمَ على وجههِ لوحة غضبٍ، وراح يلوكُ قطعة سريس في فمه..

ألقيتُ عليه تحيةً، ثم جلستُ على الطرف الآخر من المائدة..

أتت أطباقُ الطعام تحملها امرأةٌ في العقد الثاني من العمر، بيضاء، ممتلئة اللحم، بشوشة الملامح وترتدي جلابية بيت زرقاء.. علمت أنها (دلال) زوجة طاهر..

في البداية تناولنا جميعًا الطعامَ في صمتٍ وترقُّبٍ.. وأخيرًا تكلمت راجية وللعجب لم تأتِ على ذكر أو عتاب ولاء.. اكتفتْ بقولها:

- اللي فات مات.

ثم راحت تحكي لنا قليلًا مما مضى.. تُخبرني أنها تزوجت والد ولاء وهى في الخامسة عشرة كما هي عادة أهل القرية في تزويج بناتهم في سن صغيرة.. لم يكن والد ولاء شخصًا قاسيًا كما أخبرتني ولاء (هكذا قالت).

- ولاء مقالتش كدا..

وهكذا قلتُ أنا..

نظرت راجية إلى ولاء نظرةً مُعاتبةً، وكأنها واثقةٌ من أنها قالت ذلك، ثم عادت تُكمل.. قالت إن الحياة كانت ضنك وما يجنيه الأب لم يكن يكفي لمعيشة الأبناء، لهذا كان دائمًا ما يثورُ ويلعنُ كل ما هو موجودٌ، لكنه حين

يختلي معها كان يبدو مثل طفلٍ صغيرٍ.. كثيرًا ما أخبرها أنه يخشى على ابنته الكبرى فهي لا تزال غضَّةً وجاهلةً بهذا العالم القبيح.. ثم هربت ولاء.. عند تلك النقطة صمتتْ.. أطرقت ولاء برأسِها في الأرض.. قلتُ مُحاولًا تجاوزَ الأمر:

- وبعدين؟

أجابت:

- مبقاش قادر يرفع وشُّه في عين الناس.. اتكسر.

ثم حكت كيف بحث عن عقد عمل في الخليج هربًا من ضيقة العيش ثانيًا ومن كلام الناس أولًا.. لسوء الحظ لم يستطع العثور عليه إلى أن ساعده أحدُ الأقارب في السفر إلى ليبيا.. اشتغل هناك صيادًا فوق أحد مراكب الصيد حيث استطاع أن يدَّخر مبلغًا معقولًا من المال، دفعه فيما بعدُ لأحد المهربين لكي يتسلل إلى إيطاليا.. وفي إيطاليا عمل في مزرعة عنبٍ وتزوَّج من امرأةٍ مغربيةٍ، وأنشأ أسرةً ثم مات منذ سنواتٍ قليلةٍ ودُفن هناك.. بعد ذلك زارتهم زوجتُه المغربيةُ، واشترت لهم هذا المنزل الكبير مع قطعة الأرض التي يقومُ طاهر بفِلاحتها حاليًا، ثم غادرت بعدما أخبرتهم أن تلك كانت وصية زوجها لها وإليهم.

بعـد أن انتهـت راجيـة مـن حديـث الذكريـات، طلـب طاهـر أن يُحدثنـي علـى انفـرادٍ.. لم أجـد سببًا للرفـض.. سرتُ معـه إلى غرفـةٍ أخـرى.. نظـر وراءه حتـى يتأكـدَ مـن عـدم مجـيء أحـدٍ خلفنـا ثـم أغلـق البـاب جيـدًا.. صـار لديَّ شـعورٌ قـوي بأنـه ينـوي إيـذائي أو إجبـاري علـى قـول حقيقتـي.. هـي لكمـةٌ واحـدةٌ منـه وبعدهـا سـوف أُخـبره بـكلِّ شيء.. عليـك اللعنـة يـا ولاء.. أقسـم أننـي سـوف أخـبره بـكلِّ شيء..

نظر نحوي بغموضٍ شديدٍ:

- مجدي!

- تحت أمرك يا طاهر بيه.

قلتُهـا وأنـا أحـاول أن أبـدو هادئـًا حتـى أمنـعَ الخـوفَ مـن التسـلل إلى صـوتي.. ثـم وبـلا سـابقِ إنـذارٍ احتضننـي.. الآن أنـا خائـفٌ كـما لم أخـف مـن قبـل.. هـل يظـن هـذا الأحمـق أننـي شـاذ؟!!.

- ألف ألف مبروك..

بعـد تهنئتـي عـلى زواجـي مـن ولاء، أخـبرني أنـه يشـعرُ بالفخـر والسـعادة لقدومـي، ثـم استرسـل بعـد ذلـك في كلامٍ هـو مزيـجٌ مـن الهـراء.. والهـراء!

الأيـام التاليـة مـرَّت عاديـةً بخـلاف أنهـم كانـوا يُغلقـون علينـا الشـقة بالقفـل، وكانـت الحكمـة في ذلـك كـما قالـت راجيـة هـي أن دلال أحيانـًا تخـرجُ لقضـاء بعـض مـن حاجتهـا، ومـن المشـين أن يطلـع عليهـا غريـبٌ مثـلي.. حجـةٌ واهيـةٌ لكنـي قبلتهـا عـلى مضـضٍ وبـلا نقـاشٍ منعًـا للإحـراج..

كانــت راجيــة امــرأةً متدينــةً تســتيقظ مبكــرًا لتصــلي الصبـح ثـم تُمـارس بعـض الأعـمال المنزليـة المعتـادة إلى حـين اسـتيقاظ بقيـة أهـل البيـت.. كانـت تتذمـر كثـيرًا مـن كسـل (دلال)، لكـن وللحـق كانـت الأمـور بينهـما تسـيرُ بشـكلٍ مثـالي كـما يفـترض بـين حـماة مصريـة وزوجـة ابنهـا.. باختصـارٍ، كان الأمـرُ بينهـما جحيـمًا مُسـتترًا.

كنــت أمــضي معظــم وقــت النهــار برفقــة طاهــر.. كان طاهـر في أواخـر الثلاثينيـات مـن العمـر.. مربـع الوجـه، ضخـم الجثـة، كثيـف شَـعر الـرأس والذقـن، أقـرب إلى أن يكـون دبًّـا بشريًّـا.. صوتـه مرتفـعٌ أثنـاء الحديـث، دائـم السـباب والشـجار عـلى أتفـه الأسـباب.. في البـدء ظننتـه شـخصيةً سـمجةً شريرةً، لكننـي بمـرور الوقـتِ وبعـد صُحبتـه أيقنـتُ أنـه يملـكُ قلبًـا أبيـض مثـل الحليـب وشـخصيةً هشَّـةً يُحـاول إخفاءهـا وراء غلظـةٍ يصطنعهـا..

حين كنا نسيرُ في وسط الأراضي المزروعة كان يتخير منها مزارع الفول ثم يدخلها ويخرج منها بحفنةٍ من الفول الأخضر، يحتفظُ بها داخل جيوبه ويأكلها فيما بعد كالبغلِ.. في البدء تعجَّبت واستنكرتُ لكن بمرور الوقت رحت أشاركه فيما يفعل.. لم أكن أتخيل أن ذلك الخضار يحملُ هذا الكم الكبير من البهجة.

بالنسبة لقضاء اليوم هناك فلم يكن به شيء مميز.. كان مللًا في مللٍ.. ولاء تقضي كل النهار مع والدتِها في حين كنتُ أعانق الأريكة وأتابع ما تعرضه شاشة التليفزيون المملة..

كان طاهر يعودُ في الثالثة عصرًا، ولم يكن يتأخر دقيقةً واحدةً عن موعده.. بعد ذلك نجلس معًا حول مائدة طعام الغداء.. طبيعي أن يكون البط والإوز هما الأطباق الرئيسية في كل يوم.. كان ذلك أمرًا مُبهجًا وجميلًا، وأيضًا لذيذًا.

حول الطعام كنتُ أحب أن آكلَ في صمتٍ.. على العكس مني كان طاهر يُحب الحديثَ أثناء الأكل، كان يحكي عن كل شيء وأي شيء.. كنت أستقبلُ حديثه بهمهمةٍ خافتةٍ وأحيانًا بضحكةٍ باردةٍ إذا ما قال دعابةً أو شيئًا ما غبيًّا.

بعد الغداء كنا نجلسُ من جديدٍ لنستمعَ إلى بقية حديث طاهر برفقة أكواب الشاي المُعطر بالنعناع.

عند حلول المساء كنتُ أخرجُ برفقة طاهر وأجلس معه على قهوة بلدي صغيرةٍ تملكها امرأةٌ تُدعى (سنية) بعد أن ورثتها عن زوجها الذي قضى نحبه في السجن بسبب قضية حشيش، والذي هو بدوره كان قد اشتراها من أرملة صاحب القهوة الأصلي والذي مات أيضًا نتيجة انفجارٍ في الزائدة الدودية.

كانت القهوة تبعدُ عن المنزل شارعيْن وثلاث بلاعات لا بد أنْ تنتبه لها جيدًا حتى لا تسقط في إحداها..

على مدخل القهوة دائمًا تجلسُ سنية وهي ترتدي جلبابًا أسود وتلف رأسَها بإيشارب أخضر مُطرز تُتابع كل ما يجري مثل قائدٍ حربي يخوضُ واحدةً من معاركه المهمة..

على الرغم من أنني جلستُ من قبلُ في أماكنَ أكثر رقيًّا فإن تلك القهوة كان لها طابعٌ جميلٌ ودفءٌ شعبي..

رواد القهوة أغلبهم من ساكني المنازل المجاورة تعرفهم سمية بالاسم وبمشاريبهم المعتادة.

عرَّفني طاهر على سنية فابتسمت في وجهي ابتسامةً عريضةً ذكَّرتني بتحية كاريوكا في فيلم شباب امرأة، ثم حيَّتني بحرارةٍ وأرسلت لنا زجاجتيْ حاجة ساقعة فئة الصاروخ مع صبي القهوة والذي يُدعى (سنفور) كونه يُشبه شخصيةً من شخصيات (السنافر).

كنتُ أجلسُ أنا وطاهر ما بين الساعة والساعتين نقضيهما في لعبةِ الطاولة أو الدومينو، وأحيانًا في متابعة المباريات المُشفرة.

على العاشرة مساء كنا نعودُ حيث نتناول العشاء بعدها يذهبُ الجميع للنوم.. كان هذا أمرًا مقيتًا بالنسبة لشخصٍ ليليٍّ مثلي.. في الليل كنت أُمارسُ الحبَّ مع ولاء رغبةً في تمضية الوقت ليس أكثر.

ما أن تخلد ولاء للنوم حتى كنتُ أقضي معظمَ الليل أتقلب على الفراش، أو أحدِّق في السقف، أو أقضم أظفاري.. باختصار كان هذا هو ملل الجحيم بعينه.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

- عاوزك تيجي معايا عرس واحد صاحبي..

كان أمرًا جميلًا أن يطلب مني طاهر أن أذهب معه بعدما انتهينا من تناول العشاء.. وافقت على الفور.. أخيرًا سوف أكسرُ حالة الملل التي أعيشُها منذ أن وطئت قدماي هذه القرية..

صعدت إلى الأعلى فرحًا لتغيير ملابسي مثل طفلٍ صغيرٍ سوف يذهبُ إلى الملاهي مع والده..

فوجئتُ بولاء تصعد خلفي بسرعةٍ.. حذَّرتني من الذهاب إلى هناك وطلبت مني أن أنزل لطاهر وأعتذر له.. بالطبع رفضتُ.. كاد الموضوع أن يتحول إلى شجارٍ عنيفٍ معها لولا أن تمالكتْ هي نفسَها..

نزلتُ إلى طاهر يتبعني تحذيرٌ منها بأن ألتزم الأدب هناك وأن أغض بصري حتى لا أثير الأهالي.. تهكمت: "عزيزتي أنت تعلمين أن الأدب هو مرادف لاسمي".

في الأسفل وجدتُ طاهر في انتظاري وقد ارتدى جلبابًا بنيًّا فضفاضًا ووضع فوق رأسهِ عمامةً كبيرةً..

قامت دلال بإحضار مبخرةٍ كبيرةٍ وراحت تدورُ بها حول زوجِها وهي تُردد بعضَ الأدعية من الموروث الشعبي، لكن وعلى ما يبدو أن طاهر همس في أذنها بنكتةٍ قبيحةٍ فانطلقت تُقهقه بمياعةٍ لا تليقُ سوى بفتاة ليل.. حدجتهَا راجية بنظرةٍ كالرصاصة، وقالت:

- بالراحة.. وطِّي صوتك.. الجيران يقولوا علينا إيه!

نظرت لها دلال ببطءٍ، وهي تُحاول أن تكتم نفسها:

- يقولوا اللي يقولوه.. أنا بضحك مع جوزي..

قالت راجية وهي تُوبخها:

- أنا مبحبش ده..

مدَّت دلال يدَها ووضعتها حول صدرِ طاهر:

- جوزي..

كرَّرت راجية بغضبٍ:

- قلت مبحبش ده..

حاولت دلال أن تدخل معها في معركةٍ، لولا أن نفخ طاهر من أنفه كالخرتيت فالتزمت الصمت، بينما أشارت راجية إلى المبخرة:

- يلا كمِّلي!

وبإذعانٍ أمسكت دلال بالمبخرة وهي تُتمتم في سرِّها.. وحين انتهت خرجتُ أنا وطاهر..

توجَّهت نحو سيارتي، لكنه أشار لي بالانتظار ثم تركني واتجه نحو جراجٍ قديمٍ متآكل الجدران.. فتح بابه المصنوع من الصاج وغاب في الداخل طويلًا..

حين هممتُ بأن أُنادي عليه سمعتُ صوت فرقعةٍ أشبه بانفجار قنبلةٍ صغيرةٍ أعقبها هديرُ مُحرك سيارة، ثم خرج وهو يركبُ سيارةً صدئةً تجاوز عمرُها النصف قرن تقريبًا..

أشار لي بأن أركب بجواره.. فكَّرتُ أن ألعنه ثم أجري هربًا منه.. لو فعلتُ ذلك الآن لذبحتني ولاء.

فتحتُ باب السيارة فسقط مضاد الصدمات الأمامي من مكانهِ.. نظرتُ مُندهشًا.

- سيبه!

قالها وهو يضحك.

انتقيـتُ مـكاني بصعوبـةٍ في المقعـد المجـاور لـه.. عبثًـا حاولـتُ بقـدر اسـتطاعتي أنْ أمنـعَ حـشراتٍ مُخيفـةً أن تلدغنـي.. في الواقـعِ كان الأمـرُ أشـبه بغـزو .

عاد يضحكُ وهو يُزيح بعضَ البقِّ عن قفاه:

- هع هع هع.. إنت خايف من حبة بق!

رددتُ:

- بق!!

- حمارتك العرجة تغنيك عن سؤال اللئيم.

لا أعلم لماذا ذكر هذا المَثل.. قلتُ:

- أكيد اسمها زوبة..

ضحك مرةً أخرى:

- زنوبة.

- مين؟!!

- زنوووبه.. أنا مسمِّيها زنوبة.

- وماله.. أهو كله جنان.

ثـم تذكـرت أمـر الضجيـج الـذي أسـمعه كل ليلـةٍ، فسـألتُهُ عنـهُ.. لم يـردَّ بسرعـةٍ ورأيـتُ الأفـكارَ والأكاذيـبَ تنهـشُ في جبينـهِ.. قـال لي بعـد برهـةٍ إن الصـوت مصـدرُه بالوعـة الـصرف الصحـي التـي يقـوم بتنظيفِهـا كل مسـاء، ثـم غـيَّر الموضـوع بسرعـةٍ وانتقـل للـكلام عـن الـزواج والأفـراح.. كان يمكـن أن أجادلـه وأقـوم بإحراجـهِ لكـن فضَّلـت أن أبتلـع كذبـه المفضـوح بـإرادتي.. عـلى الأقـل هـو لم يقـلْ إن هنـاك مخلوقـاتٍ فضائيـةً هـي التـي تُصـدر هـذه الأصـوات وإلا لكنـتُ أفحمتُـه.

أخـبرني أن سـن الـزواج يختلـفُ كثـيرًا عـن المـدن، فمـن تبلـغ الـ٢٠ عامًـا تُعتـبر في حُكـم العانـس، وفيـما مـضى كانـت هنـاك مغـالاةٌ رهيبـةٌ في المُهـور نتيجـة مـوروثٍ قديـمٍ مفـاده أن قيمـة ومكانـة العـروس وعائلتهـا يتحـددان بنـاء عـلى المهر، وأن ذلـك أدَّى إلى عـزوف شـبابِ القريـة عـن الـزواج مـن بناتهـا والاتجـاه إلى الـزواج مـن قـرى أخـرى، إلى أن جـاء أحـدُ مشـايخ الصوفيـة واقـترح أن يتـم تخفيـضُ قيمـة المهـور وتـم جمـع أعيـان البلـد والاتفـاق عـلى ذلـك.

في الحقيقـة لم أكـن مهتـمًّا بمـا يقـول، كنـتُ مُنشـغلًا في الفرقعـةِ التـي راحـت تصـدُر مـن السـيارة بـين الحـين والآخر..

بلا شك سأموتُ اليوم مُحترقًا من السيارةِ أو مشلولًا بسبب حديثهِ.. لكن فجأةً رمى قنبلةً في أذني:

ـ والدخلة عندنا بتكون بلدي[1]..

ثم ضحك ضحكةً طويلةً حين قال ذلك فامتقعَ وجهي بشدةٍ.

ـ طخ.. طخ..

أطلق طاهر طلقتيْن من طبنجةٍ كان يُخفيها بين طيَّات ثيابه احتفاءً بالعريس الذي راح يرقصُ وسط أحبابه وأقاربهِ بمنديلٍ مُلوَّثٍ بغشاء بكارة زوجته، والزغاريد تتعالى من حوله..

كان هناك تناغمٌ شديدٌ بين اللمبات التي تم رصُّها بعنايةٍ شديدةٍ حول منزل العريس..

(١) الدخلة البلدي: هي عادةٌ قديمةٌ يتم خلالها الاعتداءُ الوحشي على الفتاة بمعرفةِ أهلها علي يد خالتها أو عمتها بأساليبَ لا يُمكن ذكرُها وعقب فضِّ غشاء بكارتها يُلطخون به قطعة شاشٍ ليأخذوه لمكان سكنها مزغردين وصارخين أن ابنتهم شريفة كي يخرجَ الجميعُ من منازلهم في منتصف الليل ليروا ذلك المشهد المُقزز، تاركين خلفهم فتاةً مُحطمةً نفسيًّا وجسديًّا

كنتُ أتابعُ ما يجري من طقوسِ الزواجِ مُندهشًا.. توقَّف طاهر عن وصف ما يحدثُ لي وتركني أتشاجرُ مع أفكاري حين سلَّم على رجلٍ أسود كالليل له لحيةٌ مثل لحيةِ الجَدْي ويعرجُ على ساقٍ خشبيَّةٍ.. اسمه (عثمان) وشهرته بين الجميع (هتلر)، وكان يعملُ نجار مسلح وحاليًا هو مقاول عمَّال كما أخبرني طاهر..

ابتسم هتلر حين لاحظ نظرتي إلى ساقهِ الخشبيةِ.. قال بسخريةٍ:

ـ معلش.. أصل سبتها في الكويت أيام حرب الخليج..

ثم سحب طاهر بعيدًا عني دون كلمةٍ أخرى.. راقبتُ من بعيدٍ حديثهما المتوتر والذي انتهى بأن احمرَّ وجهُ طاهر ثم طوَّح بيدِه في اتجاه هتلر وألقى سبَّةً لم أسمعها لكني ميَّزت حروفَها على شفتيْه..

وهكذا لم يدمْ حديثُهما طويلًا إذ سرعان ما سار طاهر باتجاهي مُتلفتًا بين الحين والآخر نحو هتلر الذي راح يُتابعه في صمتٍ.. ولأول مرةٍ منذ أن التقيتُ طاهر لمحتُ شياطين الجحيم تتراقصُ فوق جبينِه.

استيقظتُ من جديدٍ على الضجيج الذي يأتي من الأسفل، هذه المرة كان واضحًا وأكثر قوةً.. حاولتُ أن أعودَ للنوم لكني عجزتُ.. غبطتُ ولاء على نومِها الثقيل وودت لو أسقطتها على الأرض..

تناولتُ علبة سجائري، ثم أشعلتُ سيجارةً ووضعتُها في فمي.. سحبتُ نفسًا طويلًا وأنا أُراقبُ ما تبقَّى من عودِ الثقاب والنار تلتهمُه ببطءٍ حتى تفحَّم.. شردتُ قليلًا قبل أن أفيق حين سعلت ولاء بحدةٍ بعدما تسلل بعضُ الدخان إلى صدرها.. تحسَّستُ وجهَها بأناملي فرأيتُ فيها ما لم أره من قبل.. أطفأتُ السيجارةَ بعدما أنهيتُ نصفَها بالكاد..

نهضتُ من الفراشِ ونزلتُ على رُكبتي.. ألصقتُ أذني بالأرضية.. صوتُ مِعول يحفرُ ويكسرُ في الصخر..

تساءلت عن سرِّ تلك الأصوات الليليةِ.. أجبتُ نفسي بأن هناك أمرًا خطيرًا يحدثُ في الأسفل..

كدتُ أن أستمر في سؤالِ نفسي لولا أن مرَّ بجوار وجهي صرصارٌ كبيرٌ قبيحُ الشكل.. تحرَّكت قرونُ استشعارِه نحوي، وقبل أن أتمكن من سحقه غاب بسرعةٍ داخل أحد الشقوق..

نهضتُ من على الأرض وقد شعرتُ بصريرٍ يئن داخل ركبتي.. ذهبتُ إلى الباب وأنا أتمنى أن تكونَ راجية قد نسيت وضع القفل عليه، لكن محاولةً أولى وثانية وثالثة لفتحهِ جعلتني أتأكد أنها لم تنس.

حسنًا.. أنا اليوم لن أظل حبيسَ تلك الجدران.. الأيام الماضية كنتُ قد قضيتُها في دراسة التفصيل المعماري للمنزل.. من حُسن الحظ أني فطنتُ إلى أن نافذة المطبخ تطل على منور السلم..

توجهتُ إلى المطبخ بخطى سريعةٍ.. العفنُ والرطوبةُ التي التهمت الجدران كانا حاضريْن هناك بشدةٍ..

تحسستُ خطواتي هناك وتجنَّبت الأواني المصنوعة من النحاس والألومنيوم حتى لا أصدر أي ضجيجٍ..

كانت النافذةُ صغيرةً وتكفي لعبوري بالكاد.. أزحتُ كل ما حولها من كراكيبَ ومهملاتٍ ثم وضعُها على حافتها.. خلعتُ الإطارَ الخشبي الذي يُحيط بها محاولًا توسيعَ المجال أمامي إلى أقصاه ثم تسلقت عليها.. حين أوشكتُ على العبور منها اكتشفت أنها أوسع مما تخيَّلت.. أو ربما أنا أنحف مما أعتقد..

عبرتُ إلى منور السلم ومنه أخذتُ أمشي فوق درجاته في اتجاه الأسفل نحو مصدر الصوت..

كان السلم معتمًا وتحاشيتُ أن أشعلَ نورَه في مزيدٍ من الحذر، واستعضتُ عن ذلك بنور كشاف تليفوني.. صحيح أنه كان ضعيفًا جدًّا لكنه كفل لي حدًّا معقولًا من الإضاءة أميِّز بها الدرجات..

عبرتُ من أمام شقة طاهر.. سمعتُ صوت التلفاز يأتي من داخلها وتحديدًا الصوت المميز لدبلجة المسلسلات التركي..

أكملتُ طريقي ومع اقترابي من الدور الأول لمحت صرصارًا أسود يجري بين قدميَّ.. أكاد أقسم أنه نفس الصرصار الذي كان في الأعلى.. حاولتُ أن أهرسه بقدمي لكن اللعين غاب من جديدٍ داخل أحد الشقوق..

في الأسفل كان كل شيء يغرقُ في الظلام الدَّامسِ، فقط كان ضوءًا صغيرًا يتسللُ من أسفل باب غرفة نوم راجية..

تنصَّت محاولًا البحثَ عن مصدر الصوت والذي تلاشي منذ قليلٍ..

صبرتُ برهةً.. لا صوت.. لا حركة.. اللعنة.. هل كنتُ أتخيَّل ذلك..

عاد الصوتُ من جديدٍ.. تتبَّعتُ مصدرَه.. قادني إلى الكومودينو الأثري العملاق.. الغريب أنه لم يكن في موضعهِ.. كانت قد تمَّت إزاحتُه جانبًا تاركًا آثار خدوشٍ فوق السجادة.. تحت مكانهِ مباشرةً رأيتُ حفرةً في الأرضِ.. خلفها لمحتُ ممرًّا طويلًا يخرجُ منه ضوءٌ خافتٌ ممتزجٌ بغبارٍ قِرْمِزِيِّ اللون.

أغلقتُ نورَ هاتفي ونزلتُ إلى الأسفل عبر سلمٍ خشبي متهالكٍ أوشك أن يتحطم تحت وطأةِ ثقلي..

كان لوقعِ ملامسةِ قدمي الأرض صوتٌ مكتومٌ.. توقَّف صوتُ الحفرِ وسمعتُ ارتطام شيءٍ معدنيٍّ بالأرض.. ثم سكن كل شيء.. تسارعت أنفاسي رغمًا عني وسمعتُها عاليةً مثل دقات طبول.. مشيتُ إلى الأمام وأنا أحني رأسي متجنبًا القوائم والعوارض الخشبية التي تم غرزُها في السقف وجوانب الممرِّ..

فجأةً.. أغشى وجهي نورٌ هائلٌ وقبل أن أنطقَ أو أرفعَ يدي لحماية عيني، ارتطم شيء ثقيلٌ بصدري، ثم طوَّحني أرضًا وسقطتُ على وجهي فدخل الترابُ في حلقي وكتم أنفاسي..

حاولتُ النهوضَ وأنا أطوِّح بقبضتي في كل الاتجاهات وبعشوائيةٍ شديدةٍ محاولًا الدفاع عن نفسي، لكن سمعت

صرخـةً هائلـةً اهتـزَّت لهـا جوانـبُ الممـرِّ وحطمـت أعصـابي ثـم رأيـتُ فأسًـا تهـوي باتجـاه رأسي.

هـل سـمعتم مـن قبـلِ عـن قصـة الفـلاح والفـأس.. إنهـا قصـةٌ ممتعـةٌ للأطفـال عـن فـلاحٍ سـقطت فأسُـه في البحـر، فـإذا بعـروسِ البحـر تخـرجُ لـه ومعهـا فـأسٌ مـن فضةٍ وتسـأله هـل هـذه فأسـك لكنـه يُجيـب بالنفـي، ثـم تغـوصُ وتخـرجُ بفـأسٍ مـن ذهـبٍ وتسـأله مـن جديـدٍ فيُجيـب بالنفـي مـن جديـدٍ، وحـين تخـرجُ لـه بفأسـهِ المصنوعـةِ مـن الحديـد يأخذهـا، فتقـوم عـروس البحـر بمكافأتـهِ عـلى صدقـهِ وأمانتـه، وإهدائـه الفـأس المصنوعـة مـن الفضـة وكذلـك المصنوعـة مـن الذهـب.

لا أعلـم لمـاذا تذكـرت تلـك الحكايـة حـين رأيـت طاهـر وهـو يمنـعُ هتلـر في اللحظـةِ الأخـيرةِ مـن تهشـيم رأسي بالفـأس.

- قوم!

قالها طاهر وهو يُعاونني على النهوض.

- إنت بتعمل إيه؟

أخـذ طاهـر نفسًـا عميقًـا وتبـادل النظـر مـع هتلـر الـذي راح ينظـرُ لي بتحفُّـزٍ شـديدٍ، ثـم أجابنـي:

- إنت شايف إيه!

- شايف حفر.

أخـبرني أنـه يبحـثُ عـن مقـبرةٍ فرعونيـةٍ، وأن تحت أسـاس المنـزل كنـوزًا وآثـارًا تكفـي لـكي تمـلأ متحفًا.

- عشان إيه؟

سـألته، فضحـك بصـوتٍ مرتفـعٍ وشـاركه هتلـر الضحـك.. قـال بعـد أن انتهـى:

- الفلوس يا جوز أختي.. المصاري.. هو فيه غيرها.

ثـم قـصَّ لي عـن الكثـير مـن أبنـاء القريـة الذيـن اغتنـوا بفعـل الآثـار وبيعِهـا، ثـم أنهـى قَصصـه بقولـهِ:

- فلوس ملهاش عدد يا جوز أختي.

- وإنت متأكد أن تحت البيت آثار؟

تناول من على الأرض قطعًا حمراء صغيرةً وناولها لي:

- ده اسـمه (شـقف).. علامـات ودليـل عـلى وجـود مقـبرةٍ هنـا

تحسَّست الشقف بيدي.. كان أملس وناعمًا أشبه بالفخَّار.. استطرد:

ـ حاول تكسره!

حاولتُ أكسره لكنه كان صُلبًا، على الرغم من رقته الشديدة.. عاد يقول:

ـ مبيتكسرش.. اللي عمله الفراعنة.. جدودنا.. واللي موجود هنا هو ورثي ونصيبي منهم.. حلال ربنا.

طلب مني طاهر أن أشاركه ولي نصيبٌ مما سوف نجد.. في الحقيقة هو لم يكنْ يحتاجُ أن يطلب مني، لو اصطبر قليلًا لكنتُ توسَّلتُ له.. وهكذا قضيتُ معه بقية الليل تعرَّفت خلاله على طريقة الحفر ورصِّ العوارض الخشبية، ثم وفي الصباح تركته وصعدت..

لم تكد ولاء تراني حتى هبَّت واقفةً منزعجةً تسألني عما حدث وأين كنتُ..

أخبرتها بكلِّ شيء.. نعم كل شيء.. هي ستعلمُ الحقيقة في النهاية ولا فائدة من الكذب عليها..

كعادتِها رفضتْ.. اعترضتْ.. تزمَّرت.. ثم وفي النهاية رضختْ على مضضٍ..

مرَّ اليوم عاديًا جدًّا وفي المساء تجهَّزت للنزول إلى طاهر الذي لم يقم بقفل الباب علينا..

فوجئتُ بولاء تسبقني إلى الأسفل باتجاه النفق وقد ارتدت ترنج سوت وعقدت شَعرها على هيئة فيونكة فبدت مثل مراهقةٍ في ثانوي.. حاولت أن أمنعها لكنها كانت صعبة المراس وصممتُ أن تأتي معي.. رأيت أن من الأسلم ألا أجادلها أكثر من هذا فاصطحبتها بعدما لكمتُها في كتفها بينما ركلتني في ساقي..

في طريقنا رأينا راجية في المطبخ تُعد الشاي وهي تُغني أغنيةً شعبيةً حزينةً باللهجة الصعيدية لم أتبين منها سوى حروفِ الشين والخاء.. حين لمحتني كفَّت عن الغناء وحملت الصينية باتجاهي، ثم قالت لي:

ـ خد دول معاك وإنت نازل!

تناولتها منها بحذرٍ، بينما سحبت ولاء وطلبت منها أن تبقى وتترك أمر الرجال للرجال.. ولاء وعدتها أن تكون هذه هي المرة الأولى والأخيرة.. في تلك الأثناء جاءت

دلال وفي نيتها النزول أيضًا.. تطايرت الكلماتُ بين الثلاثة.. تسللت من بينهم بهدوءٍ..

جاء صدى صوت طاهر من الأسفل رنانًا:

- إيه اللي بيحصل فوق؟

التفتوا جميعًا نحوي فيما يُشبه (إلى أين أنت ذاهب؟).. قلتُ وأنا أرفعُ صينية الشاي:

- كنت هنزل الشاي وأرجع.

سبقتني ولاء في النزول وكذلك دلال.. مما يبدو أن تلك الأخيرة اعتادت النزول..

عندما صرتُ في النفق رأيتُ طاهر يدخلُ في حديثٍ مُحتدمٍ وغاضبٍ مع ولاء، بينما انزوى هتلر في أحد الأركان راسمًا على محيَّاه الخجل والكسوف المصطنع، لكنه كان يختلسُ النظر على مؤخرةِ دلال بين الحين والآخر.. ناولته كوب شاي وأشرت بإصبعي على عيني ثم عليه، فيما يعني أنني أراقبك وأرى نظراتك الوقحة.. ابتسم ثم نفخ على حافة الكوب ورشف رشفةً طويلةً:

- حلو قوي الشاي.

لم أرد عليه وأشرت له بأن ينتحي بنفسه بعيدًا، فاستجاب على مهلٍ.. في تلك الأثناء كانت ولاء وطاهر قد

انتهيا من شجارهما القصير وهدأت الأجواء كثيرًا خاصة بعد أن تدخَّلت دلال.. قلت لولاء وأنا أساعدها على الصعود لاعتلاء السلم:

- قلت لك من الأول مفيش داعي..

ثم طمأنتها أن الأمور سوف تكون على ما يُرام.. نظرتْ لي فيما يُشبه: (أيها الأحمق أنت دائمًا تُفسد كل شيء).. عُدت بعد ذلك لاستكمال الحفر وتجنَّبت الحديث حول ما دار الآن..

استمرَّ حفرنا عدة ليالٍ.. كان الحفر شاقًّا وليس بالهيِّن كما توقعتُ.. هناك أجواء خانقةٌ وأكوامٌ من التراب والحجارة لا بد من الصعود بها ثم حملُها للخارج وإفراغها..

بمرور الأيام انطفأت حماستي أسرع مما كنتُ أتوقع، وكذلك أرهقت جسديًّا على نحوٍ بالغٍ..

فكرت ثم قررت أن أنسحبَ من هذا الموضوع.. وفي اليوم الذي هممتُ فيه أن أخبر طاهر، أوقفتني صرخة هتلر.. هرعت مع طاهر نحوه ونحن لا نعلم علام صرخ.. في البداية ظننتُ أنه ربما يكون قد أُصيبَ لكني رأيته يقفُ يرتعشُ وتحت قدميْه سقط معوله الحديدي..

بجوار المِعول لمحتُ قطعةً حجريةً تبرز من تحت الأرض.. مسحتُ بيدي التراب من فوقها.. كانت أشبه بباب مقبرةٍ فرعونيةٍ.. ابتسم هتلر في ظفرٍ ولمعت عينا طاهر..

أمسكتُ المِعولَ وبكلِّ قوتي ضربتُ بابَ المقبرةِ فخرجت منه نارٌ.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

عبثًا حاولنا أن نكسرَ بابَ المقبرةِ أو حتى نُحركه.. كان صامدًا في وجوهنا ومتحديًا بشكلٍ لا يُصدق..

طلع الصباح علينا دون أن نشعرَ به.. جاءنا صوتُ راجية من الأعلى ليُنبهنا بذلك.. كان من المستحيلِ أن نستمرَّ فيما نفعل خوفًا من أن يشعرَ الناسُ بنا.. فكَّرتُ أن نخرجَ لنستريحَ، ثم نعود في المساء ونحاول من جديدٍ.. كان هتلر رافضًا تمامًا للفكرةِ وأراد أن ينامَ بجوار المقبرة لولا أن نهره طاهر بشدةٍ وكاد أن يتعاركَ معه..

مرَّ النهارُ طويلًا وأنا في انتظار قدوم المساء للهبوط إلى المقبرة من جديدٍ.. على وقت العصاري جاء هتلر مثل حيوانٍ عابسٍ.. لم يتحمل كل هذا الوقت والانتظار..

جلسنا نحن الثلاثة وقضينا الوقت المتبقي في الحديث عن كيفية بيع الآثار.. يا للروعة سوف أصبح مليونيرًا بعد لحظاتٍ..

- هشتري أرض الحاج (عبادة)؟

قالها هتلر وهو يسترخي في مجلسه.. لا أعرفُ من هو الحاج عبادة لكن على ما يبدو أنه شخصٌ يمتلكُ أرضًا ويبدو أيضًا أنه يعرضها للبيع.. احتج طاهر:

- لا.. اتقل.. الفلوس بتاعتك متطلعش مرة واحدة عشان العين..

ضحك هتلر بضجرٍ:

- متخفش.. الناس كلها دلوقتي اتعمت..

سألتُ بهدوءٍ، ولكن بلهفةٍ شديدةٍ:

- تفتكروا نصيب كل واحد كام؟

أجاب طاهر:

- ده رزق وكرم من عند ربنا.. وربك لما بيكرم بيكون من غير حساب..

لم تكد الشمس تغطس قليلًا حتى هرعنا ونزلنا.. وأمام مكان المقبرة توقف ثلاثتنا.. فركت عيني غير مصدِّق لما

أرى.. تلفت طاهر يمينًا ويسارًا مثل شخصٍ ضلَّ الطريق.. مدَّ هتلر يدَه وقبض على حفنةٍ من الترابِ وراح ينظرُ لها بذهولٍ وهي تتسللُ من بين أصابعهِ..

المقبرةُ لم تكن موجودةً..

اختفت.

لم أجد تفسيرًا منطقيًّا لاختفاء المقبرة.. قال هتلر بنبرةٍ غريبةٍ:

- الجن سحبوا المقبرة..

قال طاهر بمرارةٍ:

- كان لازم حدّ فينا يبات جنبها..

سألته وأنا أتابعه وهو يغدو في المكان ذهابًا وإيابًا:

- طيب والحل؟

ردَّ هتلر بدلًا منه:

- مفيش قدَّامنا غير حل واحد..

ثم اقترح علينا أن نذهب للشيخ السيناوي فهو الوحيدُ القادرُ على إرجاع المقبرة وفتحها.. لم أكن أعلم

مَن هو الشيخ السيناوي.. طاهر أخبرني أنه شيخ سُفلي له كرامات وعلامات مع الجن والقرين..

بالنسبة لي لا أصدِّق في كلام السحر والشعوذة.. ربما تكون محاولتنا لفتح باب المقبرة أدت إلى زحزحتها قليلًا، وبالتالي تحركت الرمال من حولها فغاصت.. أخبرتهم بهذا فاستقبلوه بتهكمٍ شديدٍ.. رمى لي هتلر المِعول تحت قدمي، وقال:

- لو إنت مصدّق كلامك احفر!

حركت معصمي قليلًا وأمسكت المِعول..

نعم سوف أحفر بلا توقفٍ..

لكن ليس اليوم..

ألقيتُ المعولَ وأخبرتهم أني معهم حتى النهاية.. ثم أكملت:

- إنتوا متأكدين من موضوع الشيخ السيناوي؟

- مليون الميه..

قالها هتلر بنبرة الشخص الذي لا يُخطئ أبدًا ثم أخبرنا أنه سيذهبُ للسيناوي لتمهيد الموضوع أولًا وبعدها سوف يتصل بنا..

وفي اليوم التالي حين اقتربت الساعة من السادسة طلب مني طاهر أن آتي معه لأمرٍ مهم..

في الخارج كانت الشمسُ قد أصبحت شاحبةً وأوشكت على الغروب

حين أخبرني أن هتلر قد اتصل به وأنه ينتظرنا عند السيناوي، أخبرني كذلك أن السيناوي يسكن على مسافة ساعة بالسيارة..

أخرج زنوبة وطلب مني الركوب على الرغم من إلحاحي عليه بأن نركبَ سيارتي..

في الطريق وعلى غير العادة اكتفى بالقيادة في صمتٍ..

وصلنا إلى نهاية القرية حيث اختفت الزروع الخضراء وحلَّت مكانها تلالٌ من الرمل الأصفر..

عرجنا إلى طريقٍ جانبي غير ممهدٍ يتسع بالكاد لمرور السيارة.. وأخيرًا توقفنا أمام منزلٍ تخرجُ منه الظلال على نحوٍ غريبٍ.. جدًّا.

طرق طاهر الباب طرقةً خفيفةً، وانتظر..

لحظاتٌ وفُتح الباب وطلَّ منه ولدٌ صغيرٌ شديدُ النحول، يرتدي جلبابًا أبيض قصيرًا يصلُ بالكاد إلى عقبيْه.. رحَّب بنا بصوتٍ مبحوحٍ ناتجٍ ربما عن إصابته بمرضٍ في الأحبال الصوتية، ثم قادنا إلى صالةٍ واسعةٍ وجدنا فيها هتلر يجلسُ يُتابع مباراةً مسجلةً في كرة القدم على شاشة تلفازٍ قديمٍ أبيض وأسود..

ابتسم هتلر ابتسامةً عريضةً كشفت عن صفٍّ من الأسنان "المنخورة" تتوسطها سِنَّةٌ ذهبيةٌ لامعةٌ وتبادل مع طاهر حديثًا سريعًا، بعدها أشار إلى كرسي عريضٍ وطلب مني أن أنتظر، ثم دخل كلاهما إلى غرفةٍ لها بابٌ داكنٌ سميكٌ وتعلوها لوحةٌ مصنوعةٌ من ورق البردي.. سمعتُ بعد ذلك صوتًا أجشَّ يُرحِّبُ بطاهر بعدها انقطعت الأصوات خلف الباب الذي أوصد.. لم أستطع الجلوس.. درتُ في أرجاء الصالة.. توقفتُ في مواجهة مرآةٍ كبيرةٍ أنظر من خلالها إلى الجدران وإلى نفسي وأفكر..

قطع تفكيري صوتُ اهتزاز زجاجي وخطوات بطيئة.. جاءني الولدُ يحمل صينية عليها زجاجة ماء وكوب ينسون تتصاعد منه أبخرةٌ خفيفةٌ.. وضع أمامي الصينية وسألني إذا كنتُ أرغب في شيء آخر، شكرته فذهب وجلس على

الأرض بجوار الباب في انتظار ضيفٍ جديدٍ.. سألته عن اسمه فأجاب:

- إكرام.

تعجَّبت من الاسم.. عدتُ أسأله:

- أنت مسيحي؟

ابتسم ابتسامةً شاحبةً، وكأنه كان يتوقع هذا السؤال ثم أجاب:

- لا.. مسلم.

ثم أخبرني أن والده أراد أن يُسميه أكرم لكن كاتب الوحدة الصحية أخطأ في كتابة الاسم وأضاف حرف الألف ولم يتم اكتشاف الخطأ إلا بعد سنوات نظرًا لكون الأب والأم لا يستطيعان القراءة.

انتهى بعد ذلك كلامي مع إكرام والذي راح يُحدق في السقف مثل المدمنين ويتمتم بموَّالٍ حزينٍ..

مرَّ عليَّ الوقتُ بطيئًا كالسلحفاة وأصبت بالملل وبرغبةٍ في قتل إكرام حتى يتوقفَ عن الغناء.. نهضتُ من مكاني وتوجَّهت حيث دخل هتلر وطاهر ثم طرقتُ الباب:

- طاهر..

ناديتُ.. أفاق إكرام من إدمانه وأشار لي بذعرٍ أن أعودَ حيث كنتُ.. تصنَّعت الغباء وطرقت الباب مرةً أخرى وأنا أشير له بعلامة الـ ok.. خرج طاهر والعَرق يتصبَّب على جبينه.. قلتُ:

- اتاخرت قوي..

- معلش.. تعال ادخل!

ثم أفسح لي مجالًا بجسده فدخلتُ.. مشيتُ فوق سجادةٍ اختفت ألوانُها بفعل الزمن وكثرة الاستخدام.. في الداخل كدتُ أن أختنقَ من دخان البخور فسعلتُ بشدةٍ قبل أن أُخرج منديلًا وأضعه أمام أنفي.. درت بعيني سريعًا.. كانت الإضاءةُ تعتمدُ على الشموع الكبيرة فأعطت رهبة للمكان.. الجدران اكتست بطبقةٍ قاتمةٍ.. السقف كان يبدو مثل السماء وقت العاصفة.. وفي المنتصف شاهدته جالسًا..

رفع وجهَه نحوي وابتسم.. الشيخ السيناوي.. كان متوسط القامة لكنه يبدو طويلًا نظرًا لنحافته الشديدة، حادّ الملامح، له أنفٌ معقوفٌ كالمنقار يجذبُ النظر وعينٌ صفراء لامعة.

أخبرنا السيناوي أن المقبرة يحرسُها مَلَك من مُلوك الجان ومعه قبيلة كاملة من الخدم والمساخيط..

أردت أن أسأله.. ولماذا كل هذا الحشد، لكنه عاد يقول وكأنه سمعني:

- صاحب المقبرة كان من كهنة الفرعون..

ثم أخبرنا أنه لإعادة المقبرة نحتاجُ إلى تحضير مَلك الجن على بدنٍ واحدٍ منا نحن الثلاثة.. طبعًا أنا رفضتُ الفكرة من الأساسِ واستنكرتُها.. هتلر التزم الصمت وأجاد اصطناع دور العبيط المُغفل.. وهكذا تسلطت وجوهُنا ونظراتُنا على طاهر الذي أعلن عن استعداده..

اتفقنا بعد ذلك مع السيناوي على بضع أشياء كان أولها نصيبُه في الغنيمة وآخرها أن نحضر ٥ جرامات من الزئبق الأحمر[١].

فجأةً سمعنا صرخةً ممزقةً جاءت من غرفةٍ مجاورةٍ وبدت كصرخةِ شخصٍ يُعاني أبشع الألم اتبعها المزيد من الصرخات ثم العويل واللطم..

- إيه الصوت ده؟

ابتسم السيناوي:

---

(١) الزئبق الأحمر: مادة يعتقد أنها خرافية لا وجود لها، ذاع صيتها منذ الثمانينيات وما زال الكثيرون يؤمنون بوجودها رغم عدم تحديد ماهيتها أو تركيبتها على وجه التحديد ويقال إنها تستخدم لتحضير الجن)

- سيب اللي في الغيب لعالم الغيب..

قالها ثم مدَّ يدَه للأمام وأغمض عينيْه:

- بخ.. بخ!

لم أدرِ هل قالها استطرادًا لكلامه أم أنه قالها لإرهابي.. على كلِّ الأحوال كانت صيحةً مُفزعةً جعلت شَعر رأسي ينتصبُ واقفًا.

راح بعد ذلك يقصُّ علينا حكاياتٍ عن كرامته وأفعاله الخارقة.. شعرتُ أنه يُحاول أن يُبهرنا.. بلا شك هو مجرد نصَّاب.. أنا واثقٌ أنه لا يُوجد هراء الجن الذي يحكيه.. لكن ماذا عن ذلك الشبح الذي خرج من الأرض ثم غاص داخل الحائط في لمح البصر.

أعطانا السيناوي عنوان وهاتف أحد تجار الزئبق الأحمر.. طاهر اتصل به واتفق على المبلغ ومكان وميعاد التسليم..

سافرت معه إلى بلدٍ يقع في واحدةٍ من محافظات الوجه البحري.. كان لقاؤنا مع البائع في أحد الفنادق القديمة التي لا يذهبُ لها غير الشحاذين والمجرمين.. لن

أخوضَ في تفاصيل كثيرةٍ لكن يكفي أن أخبركم أننا عُدنا ومعنا ٥ جرامات كاملة من الزئبق الأحمر..

قام طاهر بالاتصال بالسيناوي الذي اتفق معه أن نلتقي في مقبرة التل الأحمر وقت منتصف الليل.. وهكذا أعددنا العدة وانتظرنا.. ثم حين أصبح الظلام حالكًا سرنا عبر الممرِّ الوعر الذي يقودُ إلى قمة التل حيث المكان المنشود..

شعرتُ بالرهبة حين رأيتُ عشرات المقابر المتناثرة هنا وهناك.. أخبرني طاهر أن هذا المكان كان لفترةٍ قريبةٍ مدفنًا لأهل القرية قبل أن تضمه وزارةُ الآثار وتمنع الدفن فيه.

بعد أن عبرنا المقابر بمسافةٍ قصيرةٍ سمعتُ جلبةً، ظهر على أثرها الشيخ (السناوي) من وراء كتلةٍ حجريةٍ كان يجلسُ خلفها.. تقدم نحونا وقال بنبرةٍ تنم عن القلق:

- اتأخرتوا!

ودون أن ينتظرَ منا ردًّا التفت إلى طاهر واستطردَ:

- جبت الزئبق الأحمر؟

ناوله طاهر زجاجة الزئبق ثم أخرج من جيبهِ خصلةَ شَعر بُنية لم يُخبرني عنها.. كدتُ أن أسأله عنها لولا أن

لمحَ السـؤال في عينـيَّ فأشـار لي بـأن أصمـتَ وأن هـذا ليـس وقتـه..

وضـع السـيناوي طشـتًا نحاسـيًّا مـلاه بالـدمِ وطلـب مـن طاهـر أن يجلـسَ بـه.. لمحـتُ الـتردد والخـوفَ في عينـي هـذا الأخـير.. لا أنكـر أننـي أيضًـا كنـتُ أشـعر بالخـوف.

جلـس طاهـر بحـذرٍ، بينـما أخـرج السـيناوي جمجمـةً ضخمـةً وخـطَّ فوقها طلسـمًا ووضعهـا فـوق صـدر طاهـر.. ثـم وبأعـلى صوتـه راح يُكـرر:

- بحـق القلـم واللـوح.. بحـق علشـاقيش، إسـماطون، لوطيـاف، هلوليـاه.. أجيبـوا يـا خـدَّام هـذه الأسـماء.. أجـب يـا ناصـور أنـت وأعوانـك مـن الخـدم والعفاريـت.. أسـألك أن تُسـخر لي واحـدًا مـن خـدَّام اسـمك يخدمنـي فيـما أريـد.

ثـم شـهق شـهقتيْن وفتـح فـم طاهـر قسـرًا وحـشر داخلـه زجاجـة الزئبـق الأحمـر. سـمعتُ بعدهـا صـوت طنـينٍ يُشـبه طنـين النحـل وإن كان أكـثر قـوةً وأشـد رهبـةً بالتزامـن مـع أنفـاسٍ كثـيرةٍ وخطـى أقـدامٍ غـير مرئيـةٍ.. ثـوانٍ، ثـم سـمعتُ مَـن يقـول:

- لقـد أمـرتَ خدمنَـا بالحضـور فحضرنـا، ولـك منـا السـمع والطاعـة

تلفَّـت حـولي.. لا يوجـد غيرنـا.. لمحـت عـين السـيناوي.. طاهـر يرتعـدُ وقـد أوشـك عـلى البـكاء..

طرقـتْ عقـلي كلمـةٌ مـا.. لا أعلـمُ إن كانـت كلمـةً أم نـداء أم اسـمًا.. فقـط كانـت تتكـرر مـرارًا وتكـرارًا:

- (سوميا)

ارتحلـت عينـي نحـو طاهـر الـذي أصـدر حشرجـةً مخيفـةً وشـخصت عينـاه إلى السـماء، بينـما بـرزت عـروقُ عُنقـه الزرقـاء عـلى نحـوٍ بشـعٍ..

شـممتُ رائحـة كبريـت.. أحسسـتُ بـشيء شريـرٍ قـد حـضر.. انغلقـت رئتـاي ولم أعـد قـادرًا عـلى التنفـس.. انسـحبت الدمـاء مـن جسـدي وتجمعـت في رأسي حتـى كاد أن ينفجـر.. سـقطتُ عـلى ركبتـيَّ وقـد ضربتنـي غشـاوةٌ.. لمحـت رأس طاهـر يسـقط فـوق صـدره ثـم هويـتُ بجبينـي فـوق الأرضِ وابتلعـتُ كل غبـار الكـون.

شهقتُ فجأة..

فتحــت عينــيَّ مذعــورًا.. رأيــت الشــمسَ مُعلقــةً عــلى يميني صفـراء زاهيـة.. تلفَّـت مـن حـولي لأجـدَ نفسي داخل سيارة طاهـر، بينـما هـو يقـفُ بعيـدًا يُدخـن سـيجارةً وقـد راحـت ريـاحُ الصبـاح البـاردة تُحـرِّك قميصَـه..

خرجـتُ مـن السـيارة باتجـاه طاهـر.. كان يبـدو بخـيرٍ وبأتـم حـالٍ.. التفـتَ نحـوي حـين استشـعرَ اقـترابي منـه:

- فقت أخيرًا يا جوز أختي!

- إيه اللي حصلي؟

- شـكلك مسـتحملتش إمبـارح.. المهـم إنـت حاسـس بحاجـة؟

قلتُ غير مستوعبٍ:

- بصراحة مش عارف.. بس أنا دلوقتي كويس..

ثم سألته:

- دلوقتي إنت بقى عليك جنّ.. مضبوط؟

ابتسم ثم ناولني سيجارةً..

الفَصْلُ الخَامِسُ

اتفقنا مع السيناوي أن يأتينا مساء..

كانــت الفكــرة أن يقــومَ بتحضــير الجــن الموجــود عــلى طاهــر مــن أجــل ســحب المقــبرة.. مــن حُســن الحــظ أننــا كتمنـا خـبر الشـيخ السـيناوي ومـا حولـه عـن نسـاء الـدار..

تناولنـا الغـداء في المنـزل وحـين اقـتربَ العـصر جـاءت دلال ترتـدي ملابـس الخـروج.. علمـت أنهـا في طريقهـا لزيـارة أسرتهـا القاطنـة في الطـرف الآخـر مـن القريـة..

تبادلـت دلال مـع راجيـة بعـض المناوشـات الروتينيـة ثـم انصرفـت إلى حـال سـبيلها..

بعد دقائق سمعنا ضجةً وأصواتًا مُناديةً تأتي من الخارج.. كانت جلبةً كبيرةً تدلُّ على حدوث مصيبةٍ.. أحسستُ بانقباضةٍ في قلبي وبنذيرِ شؤمٍ..

هرعنا جميعًا وبمجرد أن فتح طاهر الباب نزلت الصاعقة.. كانت دلال مضرجةً في دمائِها وقد صدمتها سيارة نصف نقل وألقتها على آخر الشارع..

لن أطيلَ في ذكر ما حدث، لن أصف صراخ طاهر أو عويل راجية.. سأذكر فقط أن الخبر انتشر سريعًا في القرية انتشار النار في الهشيم.. كل شيء جرى بعد ذلك سريعًا.. أتت الشرطة تسبقها سيارة الإسعاف، ثم تحقيق سريع وتم اقتياد السائق إلى القسم..

توجَّهنا إلى المستشفى حيث أنهينا الإجراءات واستلمنا الجثة بعد أن تم تغسيلها وتكفينها بالداخل.. في هذه الأثناء كانت الشمس قد غربت وبدأ الظلامُ يغزو القرية ففوجئت بأن الدفن سوف يتم غدًا.. كان من ضمنِ عاداتهم أن يتم الدفن من طلوع الشمس وحتى غروبها.

أحضرنا الجثمان ووضعناه داخل المنزل وبقينا جميعًا مُستيقظين..

مرَّ الليلُ بطيئًا ثقيلًا كأصعب ما يكون.. خلال ذلك حاولتُ أن أختلي بولاء إلا أنها كانت ملتصقةً بوالدتها

فلم أجد بدًّا من الالتصاق بطاهر ومحاولة أن أكون زوجَ الأخت الجيد.

أتى الصباحُ وانتهينا من صلاة الجنازة ثم الدفن.. في نهاية اليوم كنتُ أجلسُ بجوار طاهر داخل صوان العزاء..

استمرَّ العزاء خمسة أيام متتالية، أثناء ذلك كانت تأتينا صواني الأكل والطعام من المنازل المجاورة..

الشيخ السيناوي زارنا في اليوم الرابع.. اتخذ مجلسًا بعيدًا وظل يرقبُ طاهر من أسفل عينيْه.. بعد أن انتهى من أداء واجب العزاء أخبرني أنه يريد أن يُحدثني في موضوعٍ ما.. لحقت به خارج الصوان واتخذنا ركنًا بعيدًا.. بادلني التعازي ثم قال باهتمامٍ:

- الجن بيطلع على طاهر؟

لم أكن أملك الإجابة.. لم أكن حتى قد فكَّرت في هذا.. أدرت سؤاله في رأسي عدة مراتٍ، ثم أجبتُ:

- لا..

هزَّ رأسَه ثم أولاني ظهرَه وتركني دون كلمةٍ أخرى.. استشعرتُ الخطر.. استبقته عدة خطواتٍ ثم واجهته:

- خير.. هو فيه حاجة خطر؟

ابتسم، ثم قال وكأنه يبصقُ في وجهي:

- لا..

لم أسترح لردِّه.. لكن في النهاية تركته يذهبُ وأنا أتابعه ببصري قبل أن أسمع طاهر يُنادي عليَّ..

توجَّهت لطاهر الذي كان يجلسُ بمفرده.. تفرَّست في ملامح وجهه فلاحظ ما أفعل:

- السيناوي كان عاوز منك إيه؟

كذبت عليه:

- كان بيسألني إذا كنت محتاج خدمة.. أهو كلام ابن عم حديت.. في الفاضي يعني..

استكان في مقعده، ولم يُعاود سؤاله..

في نهاية اليوم الخامس وبعد أن تم فضُّ صوان العزاء فوجئتُ بطاهر يسيرُ بمفردِه..

تابعتُه ببصري وهو يدورُ من خلف المنزل ثم يسيرُ كالشبح داخل الممرِّ الصاعد إلى التل الأحمر.. أوجفتُ في نفسي خيفةً وفكَّرتُ أن أناديه قبل أن ألاحظ ظلين يزحفان خلفَه.. أحدُ الظلين كان يمتلكُ قرنًا!

بعد مرور الأربعين جاءني هتلر وأعلن أنه لم يعد يطيق الصبر..

ذهبتُ إلى طاهر وسألته إن كانت حالته النفسية تسمحُ له بأن ننزل للمقبرة من جديدٍ.. لم يُمانع وطلب مني أن أتصل بالسيناوي حتى يحضرَ فلا فائدة من الحزن أو ضرر من جني المال..

اتصلت على السيناوي وفي المساء كان قد أتى ومعه إكرام يحمل له عدة التحضير وكل ما قد يلزم..

نزلنا إلى مكان المقبرة الذي اكتسى بطبقةٍ غريبةٍ من العفونة.. جرى الأمرُ بعد ذلك سريعًا.. بل أسرع مما قد توقعتُ أو تخيلتُ.. قرأ السيناوي بضعة طلاسم فوق رأس طاهر ثم.. لا شيء.. حقيقي لا شيء..

وأخيرًا جمع السيناوي عدَّته بسرعةٍ وسط دهشتنا وكأنه كان يتوقع ذلك وأخبرنا أن الجن لم يعد موجودًا داخل طاهر، ثم غادر تاركًا إيانا نضرب أخماسًا في أسداس..

ثار هتلر، وسبَّ ولعن كثيرًا، ثم أعلن أنه سيُحضر شيخًا آخر أكثر سحرًا وعلمًا..

طاهر، وكأنه لم يحدث شيء أغلق النفقَ وصعد إلى غرفته.. حين ذهبتُ خلفه وجدته يقفُ أمام صورة زوجته.. ظل ينظرُ إليها قرابة ربع الساعة.. اقتربت منه بصمتٍ.. سألته:

- مالك؟

نظر لي، ثم جذبني من يدي في حركةٍ غريبةٍ.. اتَّجه بي نحو مكانٍ منزوٍ ليتأكد ألَّا يسمعنا أحد:

- اسمعني يا مجدي.. أنا حاسس إن الجن اللي جوايا عاوز يطلع

شعرتُ بقشعريرةٍ تغزو أطرافي.. قلتُ له:

- إنت مبقاش عليك جن.. ناسي كلام الشيخ!

بقي صامتًا، ثم أجاب بكلماتٍ قليلةٍ:

- ممكن يكون عندك حق..

على مائدة العشاء جلس طاهر جامد الملامح.. لم يضع شيئًا في فمهِ واكتفى بتحديجي بنظراتٍ باردةٍ.. حاولتُ أن أفتح معه حديثًا لكنه أبى إلا الصمت..

تبادلتُ مع ولاء نظراتٍ متسائلةً نقلتها هي إلى راجية التي سألته:

- مالك يا طاهر؟

ثم وضعت يدَها على كتفه برفقٍ.. أدار لها رأسَه ببطءٍ.. وبحركةٍ آليةٍ مدَّ يدَه ثم رفع يدها عن كتفه ونهض..

تابعته بكثيرٍ من القلق وهو يسيرُ.. ناديتُ عليه:

- رايح فين؟

التفتَ نحوي، ثم أجاب كالضائع:

- أنام.

لم يكن هذا ميعاد نومه الطبيعي.. قلتُ:

- طيب ما تيجي نخرج شوية!

- أنام..

ردَّدها من جديدٍ وكأنه لم يسمعني، ثم صعد السلالم باتجاه غرفته..

كانت أصوات خطواته تصلُ لنا واضحةً ثم انتهت فجأةً وران بعدها صمتٌ.. رهيبٌ.

اليوم التالي وتحديدًا قرب صلاة الظهر أخبرتني ولاء أن طاهر لم يستيقظ بعدُ.. قلتُ:

- معلش ممكن بس تعبان..

لكنها إجابةٌ لم تُقنعني أنا نفسي، وقبل أن ترد ولاء جاءت راجية مُرتعشة الوجه.. أدركت أن هناك مصيبةً وبالتأكيد محورها طاهر أو أنا.. قالت إنها حاولت إيقاظ طاهر عدة مراتٍ، لكنه لا يستيقظ.. كادت أن تفلت مني كلمةٌ:

- مات..؟

لكني كتمتُها في حلقي في آخر لحظةٍ.

توجَّهنا مُسرعين إلى غرفة نوم طاهر.. حسبتُ عدد ساعاتِ نومه داخل عقلي..٢٠ ساعة بالتمام والكمال.. مدة طويلة.

كان طاهر راقدًا فوق سريره متخشبًا تمامًا على ظهره وقد فُردت ساقاه ورُفع ذرعاه إلى الأعلى باتجاه السقف وكأنه يُحاول إمساك شيءٍ ما..

اقتربت بأذني من صدره.. سمعتُ أنفاسَه تدخل وتخرج.. طبطبتُ على وجههِ برفقٍ:

- طاهر.. اصحى!

كان وجهُه باردًا كقطعةٍ من الثلج..

- ما له؟

قالتها ولاء..

- بصراحةٍ مش عارف.. بس احتمال تكون غيبوبة..

ثم التفتُّ إلى راجية مُتسائلًا:

- هو بيشتكي من مرض.. سُكر مثلا؟

أجابت بالنفي.. في الحقيقة كنتُ أعلم الإجابة مسبقًا.. طاهر صحته كالبغل إذا شئنا الدقة.. رحتُ أهزه بقوةٍ.. وبلا مُقدماتٍ فتح عينيْه وصرخ.

جلستُ أراقبُ طاهر طوال اليوم..

بعد ما حدث أمس لم أعد مطمئنًا له.. الغريب أنني كنتُ كلما اقتربتُ منه أشعرُ بثقلٍ في جسدي وتنميلةٍ غريبةٍ..

الجميعُ بمن فيهم أنا نعلمُ أن هناك شيئًا غير طبيعي في طاهر، لكننا نرفضُ الحديثَ حوله..

من جديدٍ وحول طعام العشاء جلسنا.. كان يأكلُ بشهيَّةٍ مفتوحةٍ عكس السابق.. قلتُ له:

- عامل إيه النهارده؟

شرب قليلًا من الماء خلف لقمةٍ كبيرةٍ، وأجاب:

- تمام.. كويس قوي..

ثم واصل الأكل.. تناقشنا جميعًا عمَّا جرى له أمس.. كان الاقتراحُ الأنسبُ أن نذهب به لطبيبٍ مُختص.. طبعًا رفض وقال إنه كان مُتعبًا ولا يوجد شيء يستوجب القلق، ثم أنهى المناقشة بأن نهض وأخبرنا أنه سوف يذهبُ لينام.

تبادلتُ مع ولاء وراجية نظراتٍ قلقةً ثم أخبرته أننا لن نتحدثَ في موضوع الطبيبِ وطلبت منه أن يسهرَ معنا لكنه رفض..

عدتُ أطارده وأطلب منه أن نذهبَ للجلوس على قهوة سنية.. وافق أخيرًا بعد إلحاحٍ من ولاء وراجية..

وصلنا إلى قهوة سنية التي ارتعشت أنوارها ربما بفعل ضعف التيار الكهربائي أو لشدة تيار الهواء البارد في تلك الليلة..

استقبلت سنية طاهر بحفاوةٍ وعزَّته في زوجتهِ قبل أن تتركنا نجلس في ركنٍ بعيدٍ بعض الشيء عن الهواء..

أتى سنفور سريعًا ونظَّف الطاولة التي نجلس عليها بعد أن حيَّانا بحرارةٍ، ثم طلبت منه الشاي المعتاد.. ذهب ثم عاد كالبرق ووضع أمامنا برَّاد شاي أزرق تتصاعدُ منه الأبخرة الرمادية.. صببتُ لطاهر الشاي وأنا أقول:

- سيبها لله..

كان مُتجهمًا.. رفع بصرَه الذابل نحوي وقال:

- كله على الله..

ثم تناول كوب الشاي وأدناه من فمه ونفخ فيه ليطردَ حرارَته.. رشف عدة رشفاتٍ مُتتابعةً قبل أن يسألني:

- مبتشفش الشيخ السيناوي؟

- مِن آخر يوم كان معانا مشفتوش.. عاوزه في حاجة..

- السيناوي مش مضبوط.. آخر مرة كان مش على طبيعته..

- لو تحب أنا ممكن أروح له!

- لا.. خليك.. لمَّا أفوق أنا هروح له بنفسي..

حاولـتُ أن أغـيِّر الموضـوع فعرضـت عليه لعـب الدومينو.. وافـق عـلى مضـضٍ.. قضينـا بقيـة الوقـت في اللعـب حتـى انتصـف الليـل فلـم يبـقِ في القهـوة غيرنـا..

استشـعرتُ تغيـيرًا في حالـة طاهـر وأنـه قـد عـاد إلى طبيعتـه..

عُدنـا للمنـزل الـذي كان يغـرقُ في سـكونٍ عجيـبٍ.. تركـتُ طاهـر أمـام بـاب غرفتـه.. صعـدتُ إلى غرفتـي ووجـدتُ ولاء تختفـي تحـت البطانيـة وتغـطُّ في نـوم عميـقٍ.. بعـد سـاعةٍ تقريبًـا سـمعتُ صـوت ارتطـامٍ قـوي يـأتي مـن غرفتـه.. لم أكـن قـد نمـتُ بعـد لـذا نهضـت مـن فـوق السريـر.. شـعرتْ بي ولاء فقالـت والنعـاس يقتلهـا:

- رايح فين يا مجدي؟

- عطشان.. هروح أجيب إزازة ميَّه.

دثرت نفسَها بالغطاء، وأكملت نومَها..

نزلـتُ السـلالم باتجـاه غرفـة طاهـر.. وقفـتُ أمـام بابهـا أصغـي.. أسـمعُ همسًـا وهمهـماتٍ غريبـةً.. فتحـتُ البـاب برفـقٍ ودخلـتُ.. في الداخـل كان الظـلام يبتلـعُ كل شيء.. سـمعتُ نفَـس طاهـر وهـو يعلـو ويهبـط.. أشـعلتُ كشـاف الموبايـل متلمسًـا بعـض النـور.. ميَّـزت جسـد طاهـر فـوق

سريـرهِ مُتصلبًـا مثـل الأمـس.. رأيـتُ للحظـةٍ أن هنـاك ظـلًّا انسـحب فجـأةً داخـل جسـده.. حاولـتُ إقنـاع نفـسي بأنـه وهـمٌ.. دنـوتُ مـن طاهـر.. سـلطت الضـوء عـلى وجهـهِ.. أجفلـت في مـكاني وكـدت أن أصرخَ.. كان فمـه مفتوحًـا عـن آخـرهِ وعينـاه تنظـران لي.. مثـل شـيطان.

الفَصْلُ السَّادِسُ

طـارت بومـةٌ أمـام وجهـي حـين فتحـتُ النافـذة.. صاحـت ولاء بضيـقٍ وهـي تضعُ وسـادةً عـلى وجهِهـا:

- - إيه اللي مصحِّيك بدري كدا؟

لم أخبرهـا أننـي لم أنـم منـذ أن نزلـت لطاهـر.. لم أخبرهـا كذلـك عـن الوضـع المُخيـفِ الـذي رأيتـه فيـه..

تركـت النافـذةَ مفتوحــةً وهبطــت إلى الأســفل.. رأيــتُ راجيـة تسـتعدُّ للوضـوء وقـد ظهـر العجـزُ عليهـا.. دار بينـي وبينهــا حديــثٌ سريــعٌ انتهــى بــأن خرجــتُ متوجهًــا لأداء صـلاة الفجـر..

بالقـرب مـن مدخـل البيـت رأيـتُ شـيئًا لم أتبـين ماهيتـه جيـدًا.. حـين اقتربـت منـه أدركـتُ أنـه غـرابٌ ميِّـت.. كانـت رقبتـه مُتيبسـةٌ تمامًـا والتـوتْ بجانـب جناحـهِ الأيـسر.. أمسـكتُ بـه مـن ذيلـه ورميتـه بعيـدًا..

في داخـل المسـجد ألقيـتُ السـلام عـلى المُصلـين الجالسـين في انتظـار إقامـة الصـلاة فـردُّوا التحيـة بأصـواتٍ لا تـزال تحمـل آثـار النـوم..

بعـد أن انتهـت الصـلاة اسـتندتُ بظهـري عـلى سـلم المنـبر الخشـبي وأسـبلت جفنـيَّ.. كنـتُ أحتـاج إلى الشـعور بالأمـن والسَّـكينة..

- هنقفل الجامع يا أستاذ!

فتحـتُ عينـيَّ عـلى صـوت عامـل المسـجد وهـو يهـزُّ كتفـي برفـقٍ.. اللعنـة عـلى هـذا الزمـن الـذي تُفتـح وتُغلـق فيـه المسـاجدُ بميعـاد.. نظـرتُ حـولي فاكتشـفت أننـي الوحيـدُ الباقـي.. تنهَّـدت ثـم اعتـذرت لـه وغـادرت..

حـين عُـدت سـمعتُ صـوت طاهـر وراجيـة قادمـيْن مـن المطبـخ.. اختلسـتُ نظـرةً سريعـةً فوجـدتُ طاهـر يُسـاعد راجيـة في إعـداد الإفطـار ويتحـرك بمـرحٍ وبأريحيـةٍ كبـيرةٍ..

مـضى اليـوم عـلى أحسـن مـا يُـرام.. وحـين حـلَّ الليـل صعـدتُ لأنـام بينـما سـهرت ولاء تُتابـع التلفـاز..

أرخيـتُ جسـدي عـلى السريـر وتركتـه يبتلعنـي.. غرقتُ في التفكـير وتركـت عقـلي يقـودني إلى أماكـنَ غريبـةٍ لدرجـة أننـي نسـيتُ فيـما كنـت أفكـر إلى أن شـعرت بالنعـاس يتسـلل إلى تلابيـبِ مُخـي، ثـم بـين اليقظـة والنـوم سـمعتُ البـاب يُفتـح..

حاولـت أن أرفـعَ رأسي لأرى مَـن دخـل لكـن رأسي كان ثقيـلًا مثـل طـنٍّ مـن الحديـد.. عـاد البـابُ يُغلـق ثـم سـمعتُ صـوتَ المفتـاح يـدورُ في القفـل.. أدركـتُ أن مَـن دخـلَ قـد أحكـمَ الإغـلاقَ جيـدًا.

- مين؟

قلتها مرتعشًا..

سمعتُ صوت فحيحٍ مُخيفٍ..

لمحتُ ظلالًا كثيفةً تتجمَّع أمام وجهي..

لوهلةٍ توقَّف قلبي عن العمل..

دارت الظلالُ من حولي دورةً كاملةً..

حاولـت النهـوض لكـن جسـدي كان مشـلولًا يرفـضُ الاسـتجابة لي..

راحــت الظــلالُ تتخــذ شــكلًا بشريًّــا.. امــرأةٌ عجــوزٌ مُحترقـة الوجـه ترتـدي فسـتانًا أسـود طويـل الأكـمام ولهـا ذيـلٌ طويـلٌ يتلـوى مثـل الثعبـان..

نظرت لي دون أن تتكلم..

اقتربت مني ومدَّت يدها نحو وجهي..

حبستُ أنفاسي بأقصى ما أستطيع..

شـعرتُ بمخالبهـا تخـدشُ وجهـي.. ظننـتُ أنهـا انتزعـت جـزءًا منـه.

حاولـت أن أصرخَ.. حنجـرتي عجـزت وأعلنـت فشـلها.. وبهــدوء مــلاك المــوت طــارت العجــوز في الهــواء حتــى التصقــت بالســقف، ثــم صرخــت صرخــةً مُرعبــةً..

هذه المرة استطعتُ أن أصرخ..

صرختُ عاليًا..

عندئـذ أدركـتُ خطئـي الجسـيم.. قفـزت العجـوز داخـل فمـي.. لا أعـرف كيـف.. لكنهـا في لحظـةٍ صـارت داخـلي.

- ااااااااه..

اسـتفقت مـن هـذا الكابـوس إثـر صرخـةٍ عاليـةٍ تـردَّد صداهــا في الأرجــاء.. ميَّــزت صــوت ولاء.. تمالكــت نفــسي بصعوبــةٍ ونهضــت.. أعلــم أن هنــاك مصيبــةً في انتظــاري.

ركضــتُ حيــث ولاء.. أراهــا ملقــاةً عــلى الأرض بجــوار التلفــاز وهــي ترتجــفُ..

رفعتهـا بصعوبـةٍ ثـم أرحتهـا عـلى المقعـد.. صببـتُ لهـا كـوب مـاء وتركتهـا تفرغـه في حلقهـا قبـل أن أسـألها:

- خير.. إيه اللي حصل؟

بصـوتٍ مُرتعـشٍ وكلـماتٍ مبتـورةٍ حكـت لي أن النعـاس غلبهــا قبــل أن تــرى كابوسًــا جاءتهــا خلالــه امــرأةٌ ســوداء محروقـة الوجـه.. مهـلًا.. هـذا الكابـوس ليـس بغريـبٍ عـليَّ.. تركتهـا تُنهـي كلامَهـا ولم أشـأ إخبارهـا بـأني مـررتُ بنفـس الظـروف.. طمأنتهـا بأنهـا مجـرد أضغـاث أحـلام.. سـألتها:

- طاهر فين؟

تُخــبرني أنــه داخــل غرفتــه.. فكَّــرت أن أذهــب لأطمــئن عليــه.. طرقــت البــاب.. ناديــت:

- طاهر!

سمعتُ صوته يدعوني للدخول:

- ادخل!

دفعت الباب ودخلتُ.. ولكن طاهر لم يكن موجودًا.. غرفته في حالة فوضى رهيبةٍ وكأن معركةً حامية الوطيس دارت فيها.. الأثاث مُبعثر ومقلوب.. الأجهزة والأكواب مُهشمة.

جاءت راجية وولاء.. هالهما الوضعُ.. طلبتُ منهما ألا يقلقا ثم توجهتُ للبحث عن طاهر..

رحتُ أفتش غرفَ المنزل غرفةً غرفةً.. وصلتُ إلى حمَّام الدور الأخير.. لم أدخله من قبل.. كان بابُه مُتهالكًا تفوحُ منه رائحةٌ مُقززة.. ناديت:

- طاااااهر..

أجابني الصمتُ..

وضعت يدي على أنفي ثم دفعتُ الباب بقدمي ودخلتُ.. تحسَّست الحائط حتى ارتطمت يدي بمفتاح الإنارة.. ضغطتُ عليه بلهفةٍ شديدةٍ.. أضأتُ لمبةً صغيرةً تتدلى من سلكٍ أسود طويل.. كان نورُها ضعيفًا لكنه كافٍ لتميز الأرجاء جيدًا.. الجدران تقشر منها الطلاء واكتست بطبقة عفونة رمادية.. خيوط العنكبوت تغزو كل ركن

وكل قطعة بلاط.. هناك رأيت سخانًا قديمًا من ماركة مشهورة يبدو أنه معطوبٌ وبلا فائدةٍ.. في زاويةٍ كانت توجد قعدة إفرنجي زرقاء اللون بجوارها بانيو بنفس اللون يعلوه دش عبث الصدأ في طلائه .. ولا أثر لطاهر.

هممتُ بالرجوع لكن صوت قطرات الماء التي تتساقط داخل البانيو أوحت لي بفكرة.. تحركتُ بخطواتٍ حذرةٍ نحوه.. ارتعش نور اللمبة ثم تأرجحت في مكانها.. تسمَّرت في مكاني.. كان الماء يملأ البانيو حتى الحواف.. بدا لي للوهلة الأولى وتحت الإضاءة الضعيفة، خاليًا، صافيًا.. مددتُ يدي فيه فكسرت صفاءه.. أخرجتُ كشافًا صغيرًا وصوَّبته باتجاه القاع.. في الأسفل رأيتُ جسد طاهر عاريًا يرقد تحت الماء وقد تخشَّب جسدُه كالأموات.

أخرجتُ طاهر من الماء..

حملته إلى حجرته ثم بدَّلت له ملابسَه المبتلة بملابس أخرى جافةٍ ونظيفةٍ وسط لوعة راجية وذعر ولاء.. كان من المفترض أن أبثَّ لهما الطمأنينة لكنني في الحقيقة كنتُ أكثر هلعًا منهما.. أشعلتُ بجواره المدفأة الكهربائية

وأدرتها باتجاهـهِ ثـم خرجـتُ بينـما بقيـت ولاء وراجيـة بجـواره مـن أجـل رعايتـه.

في طريقـي للأعـلى سـمعتُ صـوت حفـرٍ يـأتي مـن مـكان المقـبرة.. لاحظـت أن هنـاك آثـار أقـدام حديثـة في النفـق الذي يقـودُ إليهـا.. نزلـت النفـق الـذي كان يتنفـس برائحـة المـوت.. توقَّـف الحفـرُ وخـفَّ الصـوتُ بعـد أن أربكتـه حركتـي.. صحـتُ:

- مين؟

لم يأتنـي رد.. أبـصرتُ معـولًا عـلى الأرض وحفـرةً جديـدةً تـم صنعُهـا اليـوم.. مـن جديـدٍ صحـتُ:

- مين موجود؟

مـن وسـط بقعـةٍ مظلمـةٍ خـرج هتلـر والعَـرق يتصبَّـب عـلى جبينـه ويسـيلُ حتـى صـدره.. قلـتُ:

- بتعمل إيه هنا؟

- حقي.. جاي آخد حقي..

أمسكتُه من ذراعه:

- طيب إمشي من هنا ومش عاوز أشوفك تاني..

سحب ذراعه، وقال بلهجة تهديد:

- أنا مش خارج إلا ومعايا حقي..

كنـتُ أغـلي مـن الغضـب.. حاولـتُ أن أشرح لـه مـرض طاهـر، لكنـه كان مثـل حـمار وحـشي لا يفهـم غـير كلمـةٍ واحـدةٍ ظـل يُردِدهـا.. حقـي.. ثـم تجاهلنـي وأمسـك المعـول وبـدأ يحفـرُ مـن جديـدٍ.. حاولـتُ منعـه.. احتـدم بينـا النضـالُ.. تطوحنـا كثـيرًا.. لا أذكـر كيـف دار القتـال.. كان مثـل الحلـم.. فقـط كل مـا أذكـره هـو حركـة المِعـول..

المِعول يرتفعُ في الهواء.. المِعول يهبطُ فوق رأسي..

ثم أظلم كل شيء.

فتحت عينيَّ بصعوبةٍ..

كنـتُ عـلى ظهـري وصـوتُ صريـر معـدني يـؤلم أذنيَّ.. السـقف يتحـرك بسرعـةٍ فـوق رأسي.. حـين اسـتوعبت الموقـف أدركـت أننـي فـوق محفـةٍ يدفعهـا ممـرضٌ داخـل أروقـة مستشـفى.. حاولـت الـكلام لكـن صـوتي لم يخـرج مـن حلقـي.. أخـرج الممـرض هاتفـه وانهمـك في حديـثٍ غاضـبٍ مـع زوجتـه.. دار بينهـما شـجارٌ حـول مـصروف البيـت، ثـم دروس الأولاد، وأخـيرًا حـول نـوع الغـداء.. لـو كنـتُ أملـك القـوة

عـلى إسـداء النصيحـة لأخبرتـه أن يتنـاول أي هـراءٍ سـتقوم بإعـداده ثـم يقتلهـا بعـد ذلـك.

إغـماءةٌ صغـيرةٌ وأفقـتُ لأجـدَ نفـسِي مـا زلـت عـلى المحفَّـة.. ثـوانٍ شـعرتُ بأيـدٍ قويـةٍ ترفعنـي وتضعنـي عـلى منضـدة الجراحـة.. ثـم حـين حاولـتُ أن أنطـق بكلمـةٍ شـعرت بوخـز إبـرة التخديـر في ذراعـي، وفي الهـواء رأيـت زوجًـا مـن عيـون الشـيطان تنظـران لي مـن وراء كمامـةٍ بيضـاء.

ليومـين متتاليـين ظللـتُ في المستشـفى.. خلالهـما أجريـتُ جراحـةً عاجلـةً لمنـع النزيـف وتعرفـت عـلى الممـرض الـذي كان يتحـدث في المحمـول.. كان يُدعـى عبـاس، مبتـذل المظهـر لكنـه بشـوش، وقـد تخـرج في المعهـد العـالي للخدمـة الاجتماعيـة، ولا يوجـد أي تفسـير منطقـي لكونـه يعمـل ممرضًـا سـوى أن ذلـك المستشـفى سـمك لـبن تمـر هنـدي.. عـلى الرغـم مـن هـذا فقـد كان خدومًـا إلى أقـصى درجـةٍ يكفـي أن تـبرز لـه ورقـة نقـود لـكي يتحـرك، غـير ذلـك هـو لا يسـمع ولا يـرى..

ولاء جاءتنـي قبـل مغـادرتي المستشـفى.. تمنيـت أن أشـم عطرهـا الحـاد المميـز فقـد كانـت رائحـة الكلورفـورم هـي

الرائحـة الوحيـدة التـي ظللـت أشـمها أثنـاء وجـودي.. للأسـف خيبـت أمـلي.. أتـت مـن دونـه هـذه المـرة.. أخبرتنـي أن هتلـر هـرب وأنهـم لم يبلغـوا الشرطـة خوفًـا مـن اكتشـاف النفـق.. وبالنسـبة لطاهـر فقـد قامـت راجيـة بحبسـه في غرفتـه.

وهكـذا أمضيـت يومًـا آخـر ثـم غـادرت في الصبـاح.. في طريقـي مـررتُ عـلى مكتبـةٍ أحـضرت منهـا مجموعـةً مـن الكتـب المسـتعملة التـي تتحـدث عـن عـالم الجـن والقريـن..

وصلـتُ للمنـزل حيـث اسـتقبلتني ولاء عـلى عتبتـه.. بعـد حضـنٍ قصـيرٍ وقبلـةٍ طويلـةٍ قالـت:

- وحشتني!

- وإنتي كمان..

ثم سألتها:

- طاهر عامل إيه؟

أجابت بنبرةٍ حزينةٍ:

- من سيئ إلى أسوأ.

في تلـك اللحظـة جـاءت راجيـة والتـي عـادت لتوهـا مـن الخـارج:

- حمد لله على السلامة..

قالتها ثم أزاحت قناع التحفظ من على وجهها واحتضنتني..

سألتها عن صحتها وحالها، فأجابت أن (الحمد لله).. تركتها مع ولاء ثم ذهبتُ إلى طاهر.. رأيت القفل الضخم الموضوع على غرفته فأحزنني الأمر جدًّا.. دخلتُ عليه فوجدته يجلسُ وهو يحملُ فوق رأسه أحزان الكرة الأرضيةِ.. لاحظت أن وزنه قد انخفض كثيرًا.. تحدثت معه فكانت كل إجابته طبيعية.. بعد أن تركته تعمَّدت ألا أضع القفل.. نادى عليَّ:

- حط القفل!

ثم سبَّني.

- عاوز أشوفك!

كانت تلك الجملة الافتتاحية التي قالها هتلر حين أجبتُ اتصاله.. قلتُ:

- أنا لو شفتك هطحنك..

- ورحمة أبويا وأمي أنا مكنش قصدي أأذيك.. الضربة جت من غير قصد..

- على العموم مفيش كلام بيني وبينك..

هتف قائلًا:

- اسمعني يا أستاذ مجدي.. تعال اقعد معايا نتفاهم!

اكتفيتُ بالصمت.. عاد يقول:

- اقعد واسمع هقول إيه مش هتخسر حاجة!

أجبته بعد جدالٍ طويلٍ بيني وبينه:

- كمان نص ساعة على قهوة سنية..

وأنهيت المكالمة وخرجت متوجهًا إلى مكان اللقاء.. كان الوقتُ حينها في الثلث الأول من النهار والجو رطب به لمسة برد جميلة.. وصلت إلى القهوة التي لم يدبَّ فيها نشاطُ الزبائن بعدُ.. رأيتُ سنية في مكانها المُعتاد بينما سنفور يُهيئ المقاعد ويمسح الأرضية.. لمحت هتلر يُدخن شيشة وهو يتخذ لنفسهِ ركنًا منزويًا.. توجهتُ ناحيته بعد أن حييت سنية وسنفور.

- عاوز إيه؟

قلتها حين جلستُ في مواجهة هتلر..

- طيب اشرب حاجة الأول!

- اخلص!

أجاب بصوتٍ خافتٍ:

- المقبرة.

ضحكتُ:

- طب متاخدها.. حدّ مانعك!

شاطرني الضحك قبل أن يُقطب جبينَه فجأةً ويقول:

- أنـا بتكلـم جـدّ.. وصلـت لشـيخ بـس أجمـد مـن ابـن الحـرام السـيناوي و..

قطـع حديثـه حـين جـاء سـنفور يسـألنا عـن طلباتنـا.. طلـب هتلـر بـراد شـاي وانتظـر حتـى انـصرفَ، ثـم قـال:

- كل الـلي أنـا عـاوزه تدخَّلنـي أنـا وهـو.. ووعـد مـن أخ لأخـوه، ليـك تلـت الـلي هيطلـع..

لمحت سنية تُتابعنا من بعيدٍ باهتمامٍ.. قلتُ هامسًا:

- يـا بنـي آدم، افهـم.. البيـت مقلـوب.. وطاهـر عيـان.. ولـو أنـا وافقـت، راجيـة مـش هتوافـق..

- إنت لو عاوز هتتصرف.. دي حجة منك..

جاءنا صوت سنية ناصحًا:

- الحرام زي المية المالحة مبيرويش..

قال هتلر:

- سـيبك مـن بنـت الهرمـة دي.. ليـك النـص قلـت إيـه.. أجيـب الشـيخ النهـاردة.

- إنت سمعتني.. مش هكرر كلامي..

وتركتـه بعـد تهديـدٍ منـي بقطـع رقبتـه إذا مـا رأيتـه مـرةً أخـرى.

الفَصْلُ السَّابِعُ

في المسـاء.. أُطفئـت الأنـوار كلهـا في آنٍ واحـدٍ.. في البـدء ظننـت أن هـذا انقطـاع طبيعـي للتيـار الكهربـائي لكـن نظـرةً مـن النافـذة واكتشـفت أننـا المنـزلُ الوحيـدُ المُظلـم.. تفحَّصـت الوصـلاتِ الكهربائيـةَ.. كان كل شيء عـلى مـا يُـرام وسـليمًا تمامًـا..لا يُوجـد سـببٌ منطقـي لانقطـاع الكهربـاء..

اتصلـت بشركـة الكهربـاء وأخبرتهـم بمـا نحـن فيـه.. أخـبروني بأنهـم سيُرسـلون مَـن يتفحـص كشـك الكهربـاء.. طبعًـا لم يـأتِ أحـد.

وضعـت ولاء القفـل عـلى بـاب غرفـة طاهـر ثـم أخبرتنـي أنهـا سـتبيت الليلـة مـع راجيـة.. تصنعـت التفهـم وتركتهـا تذهـب..

صعدتُ إلى غرفتي مكتئب الروح.. كانت تلك المرة الأولى التي أبات فيها هنا بمفردي.. كنتُ أشعرُ بوحشةٍ شديدةٍ.. أشعلتُ كشافًا صغيرًا واستلقيت على السرير.. حاولتُ أن أنام لكن النوم كان يُجافيني.. تذكرتُ ما اشتريته من كتب.. شعرتُ برغبةٍ ملحةٍ في الاطلاع على هذا العالم الغريب.. اعتدلتُ في مكاني ثم تناولتُ أحد الكتب ويُدعى (عهد الشيطان).. في أول صفحةٍ به كانت تُوجد رسمةٌ تخيليةٌ للجن.. كانت الرسمة تُصور الجن مخلوقًا ضخمًا مُروِّعًا له حراشف حمراء يقفُ على ثلاثة أرجل، لديه عينان مشقوقتان بالطول ووجهٌ مخيفٌ يتدلى منه لسانٌ مشقوقٌ كالثعابين.. ملأتني هذه الصورة خوفًا ورهبةً..

ألقيت الكتاب وتناولتُ آخر.. قرأتُ المقدمة.. كانت تقول إن الجن ظهر قبل الإنسان بنحو ٢٠٠٠ سنة وإنه أول من سكن الأرض وعبد الله فيها..

خلف المقدمة لمحت بقعة دماء جافة لونها كان يقتربُ من البني الداكن.. تساءلتُ عن أي إنسان كانت تجري به تلك الدماء وإلى أين صار مصيرُه الآن.. هل كان يجلسُ مثلي يقلب الصفحات أم أن ما في الكتاب استهواه فحاول

أن يُجرب إحدى التعاويذ مُستخدمًا دماءه.. انتابتني رغبةٌ ملحةٌ في معرفة صاحب تلك الدماء..

تصفَّحت الكتاب بسرعةٍ لعلني أجدُ ما يدل عليه..

استوقفتني معلومةٌ في المنتصف.. كانت عن شيء يُدعى (الأرياح).. وهي عبارةٌ عن موجاتٍ للجن تتخلل هالة الجسد البشري حين اقترابهم من البشر وتؤدي إلى الشعور بالتنميل أو القشعريرة وأحيانًا بالثقل.. كان هذا هو التفسير لنوبات القشعريرة والتنميل التي كانت تنتابني كلما اقتربت من طاهر.

لم أستطع الاستمرار فيما أفعل.. عُدت من جديدٍ أحاول النوم.. أغمضت عينيَّ بإصرار.. حركتُ رأسي.. تقلبت على الفراش كثيرًا حتى بات ملتهبًا ساخنًا.. أخيرًا نهضتُ بعد أن أبى النوم أن يزورني.. من حُسن الحظ أنه لا يفصلُ بيني وبين السطح غير سلم.. ارتديت ملابسي وصعدت مسرعًا متلمسًا هواء نظيفًا وبوحًا من الحرية.. في الأعلى كان القمرُ قد غاب تاركًا وراءه ظلامًا لا ينتهي..

استندتُ على جدارٍ جانبي ورحتُ أتأمل أسطح المنازل المائلة.. بدت لي الأسطح كشواهد قبور تتناثر بلا تنظيمٍ وبعشوائيةٍ وإن كانت مخيفةً وكئيبةً..

سـمعت حركـةً متوتـرةً مـن خلفـي.. أصابنـي الـروع.. هنـاك أحـدٌ غـيري.. التفـت إلى الـوراء وقلـتُ مُحـاولا تمالـك أعصـابي:

- مين؟

لم يُجبني القادم..

عـلى الأرضيـة الصُّلبـة لمحـتُ ظـلالًا عديـدةً مُختلطـةً.. تجمَّـدت.. لا أعلـم كنـهَ هـذا الـشيء الـذي يقـتربُ.. كنـتُ أرغـبُ أن أصرخ لكنـي خشـيت أن أتهـم فيـما بعـدُ بالجنـون إذا مـا كان الأمـرُ مجـرد ظـلال أو أوهـام عابثـة..

وبدافـع غريـزتي رحـتُ أقـرأ قرآنًـا وأسـتعيذ مـن الشـيطان والجـن وكل مـا يمكـن أن يُصيبنـي منـه أذى أو ضرر.

فجأة ظهرت ولاء..

تقدمت نحوي مبتسمةً..

تنفسـتُ الصعـداء.. مـن حُسـن الحـظ أني صمـدت حتـى النهايـة.. قلـتُ:

- مش قلتي هتباتي مع والدتك؟

لم تنبـس ببنـت شـفةٍ.. وضعـت إصبعهـا عـلى فمـي وألزمتنـي الصمـت.. ثـم أسـقطت الثـوب عـن جسـدها في

حركـةٍ واحـدةٍ.. انكشـفت أمامـي كـما ولدتهـا أمهـا.. التصقـت بي فصـارت أنفاسُـها الحـارة تلفـح صـدري..

وضعـتُ يـدي حـول مُحيـط خصرهـا السـاحر وقبَّلـت عنقهـا..

ماذا حدث بعد ذلك..؟

كيف شعرت ومتى فعلت..؟

لـن أذكـر.. فقـط يكفـي أن أقـول أن تلـك المـرة، هـي الأفضـل والأكـثر متعـةً، وفيهـا رُحنـا نتقلـب معًـا حتـى التصقـتْ أتربـة الأرض بجسـديْنا وأسـبغتنا لـذةً لا تنتهـي.

- ااااااااااه..

قطعتْ كلَّ شيء صرخةٌ عاليةٌ مفزوعةٌ..

رفعـتُ وجهـي نحـو مصـدر الصـوت.. كانـت ولاء تقـفُ مـع راجيـة، وينظـران لي بذعـرٍ وهلـعٍ شـديديْن في حـين كنـتُ أنـا عاريًـا وأتمـرغ فـوق الأرض بمفـردي.

لم تُصدق ولاء أي كلمةٍ مما أخبرتها..

أقسـمتُ لهـا أننـي كنـتُ معهـا بينـما أقسـمت لي أنهـا قضـت الليـل كلـه مـع والدتهـا.. وأنهـت كلامهـا:

- ومن إمتى إحنا بنعملها فوق السطح زي البهايم!

احمــرَّ وجهــي بقــوةٍ وأحسســتُ بنــارٍ تحرقنــي مــن الداخـل وأنـا أبحـثُ عـن ردٍّ مناسـبٍ، فلـم أجـد.. بعـد برهـةٍ سـألتها وأنـا أرتعـد:

- أمَّال أنا كنت مع مين؟!!

- عفريتة!!

قالتها راجية ثم تركتنا بعد أن صفقت خلفها الباب.

طـوال مـا بقــي مــن الليــل ظللــتُ غارقًــا في الأفــكار المُختلطـة.. حـين أتى الصبـاح كنـتُ قـد قـرَّرت أن كل مـا نحـن فيـه مـن مصائـب راجـع لمـا فعلـه السـيناوي بطاهـر.. ركبـتُ السـيارة وتوجَّهـت لـه.. تجـاوزتُ إكـرام، واقتحمـتُ عليـه خلوتـه.. رأيـتُ الدهشـة عـلى وجـه السـيناوي، وقـال:

- على مهلك.. الدنيا اتخلقت في ست أيام!

قلت وأنا أمسكه من تلابيب عنقه:

- عاوز أعرف إنت عملت إيه بالضبط في طاهر؟

- أنا مبعملش حاجة..

ثم رفع إصبعه لأعلى واستطرد بإيمانٍ كاذبٍ:

- ربنا اللي بيعمل!

في تلـك اللحظـة أتى إكـرام ومعـه كـوب يانسـون تتصاعـد منــه أبخــرةٌ رماديــةٌ.. تناولــه منــه الســيناوي والــذي بــدوره ناولـه لي قائـلًا بـودٍّ:

- اشرب الأول وريَّح أعصابك عشان نعرف نتكلم!

تـرددتُ قليـلًا.. رشـفتُ رشـفةً سريعـةً.. مـن قـال إننـي أخـشى الجـن أو حتـى المـوت..

لمحـتُ ابتسـامةً ماكـرةً عـلى طـرف فـم السـيناوي شـعرتُ بعدهــا برعشــةٍ بــاردةٍ تلــف جســدي ثــم راح يتحــدثُ ويتحـدثُ.. لم أعـد أميِّـز أو أفهـم مـا يقـول.. كلماتـه تصلُ إلى أذني مثـل الرعـد.. تصنَّعـت الفهـم والإصغـاء..

أشـعرُ برغبـةٍ عارمـةٍ في الاسـتلقاء والنـوم الآن.. تذكـرتُ الآن أن الينسـون كانـت لـه رائحـة غريبـة.. نهضـت مترنحًـا.. أرى الســيناوي ينقســمُ إلى ثلاثــة رجــالٍ يحملــون ملامــح مختلفـة.. فركـتُ عينـيَّ حتـى كـدت أن أدميهـما.. أحسسـتُ أننـي فقـدتُ الوعـي لوهلـةٍ.. لا أذكـر مـاذا حـدث بعـد ذلـك، فقـط حـين اسـتيقظتُ كنـتُ ممـددًا بجـوار سـيارتي..

نهضـتُ وأنـا أسـيرُ مثـل المخمـور.. ركبـتُ السـيارة ثـم قدتها بـلا هـدفٍ.. لا أعـرف أيضًـا لمـاذا توقفـت أمـام مدخـل السـوق.. ربمـا هـي تلـك الأنـوار التـي سرقـت عينـيَّ..

خرجـتُ مـن السـيارة.. أخـذتُ أدورُ في السـوق مثـل المجنـون.. عاصفـة مـن الوجـوه تـضرب عقـلي وتـدورُ مـن حـولي بـلا هـوادة.. نجـوم كثـيرة تنفجـر ثـم تخبـو.. لم أعـد أميـز بـين الوهـم والحقيقـة.. أرى جديًـا ينطـح آخـر.. وجـدتُ ظـلًّا تمـوَّج ثـم تشـكَّل سريعًـا عـلى هيئـة امـرأةٍ عجـوز:

- ضعيف..

ثم أطلقت ضحكةً ساخرةً واختفت.. قلتُ مأخوذًا:

- إيه.. فيه إيه؟

اصطدمـت بامـرأةٍ تُخفـي شَـعرها بإيشـارب أحمـر.. لمعـت عيناهـا:

- ابن آدم..

ثم ظهر لها جناحان كبيران وطارت في الهواء..

ماذا يحدث..

طفـل وطفلـة يلعبـان عـلى الأرض.. انقلبـت ملامحهـما فجـأةً.. صاحـا:

- مخلوق من طين..

أكمل فلاحٌ شاب:

- ضعيف..

واستطرد عجوز:

- ومهما حاولت..

ثم حرَّك غراب رأسَه نحوي وصرخ:

- روحك ملكنا..

فجأةً رأيت نفسي أنتقل في طريقٍ خالٍ وأسير وحيدًا..

كيف.. كيف..

خـرج مـن تحـت الأرض أشـخاصٌ لهـم وجـوهٌ طويلـةٌ ممسـوحةٌ وقـرونٌ معقوفـةٌ يحوطوننـي.. أحدهـا يدنـو منـي.. قبـل أن أبتعـد عنـه يطعننـي بقرنـه في معـدتي.. صرخـتُ.. تهاويـت.. أمسـكتُ أمعـائي التـي قفـزتْ مـن موضـع الطعنـة.. أطبقـتُ عينـيَّ مـن الألم وفي لحظـةٍ تمنيـت ألا أفتحهـما أبـدا.

لحظة انبلاج الفجر..

كان هذا هو الوقت الذي استعدت فيه وعي..

أرى ولاء تجلسُ على طرف السرير بجواري قلقة العينيْن والروح معًا.. تطبعُ قُبلة على خدي حين انتبهت لي:

- ألف سلامة.. قلقتني عليك!

أفهم منها أنني فقدت الوعي في السوق وأن بعض أولاد الحلال قد جاءوا بي إلى هنا مع طنٍّ من التساؤلات حولي والتي انتهت إلى إجابةٍ من ولاء بأنني تعرَّضت لحادثةٍ في رأسي من وقتٍ قريبٍ وهذه هي آثار مُترتبة عليها..

قبل أن أخبرها بما حدث سمعتُ طرقًا خافتًا ومتلاحقًا ثم صوت راجية.. تدخل ثم تخطو نحوي مع سؤالٍ سريعٍ عن أحوالي.. أخبرتها أنني بخير وأنها مجرد وعكة ليس أكثر.. انتظرتُ حتى خرجت ثم حكيت لولاء عن كل ما حدث.. كانت تستمعُ لي في مزيجٍ من الدهشة وعدم التصديق أو لنقل لعدم الفهم.. بعد أن انتهيتُ من حكايتي أخبرتني أنها ستنزلُ لتُلقي نظرةً على طاهر..

قرَّرت أن أذهب معها.. ارتديت ملابسي سريعًا على عجلٍ ونزلت..

في الداخل كانت غرفةُ طاهر تغرق في الظلام كما اعتدنا لكني سمعت صوت خدش متواصلٍ.. حاولت إشعال الأنوار لكنها لم تعمل.. أضاءت ولاء كشافًا كهربائيًّا صغيرًا.. على نوره الشاحب رأينا طاهر يحفرُ بأصابعه على الجدران فتختلط دماؤه ببقايا أظفاره في مشهدٍ بشع.. هرعت نحوه أنا وولاء وقمنا بالحيلولة بينه وبين ما يفعل وسط صراخه ومقاومته الشرسة.. قمنا بعد ذلك بتقييده حتى نمنعه من إيذاء نفسه.. في تلك الأثناء جاءت راجية والتي جلست عند قدم ابنها تبكي بينما هو يتصرف مثل الشخص المُصاب بالصرع..

ألقيتُ نظرةً على ما رسمه طاهر على الجدار.. كان عبارةً عن دائرةٍ تحوي داخلها رؤوس شياطين يأكل بعضها البعض، وقبل أن أحتار في معناها دوَّت في ظلام عقلي كلمةٌ غريبةٌ.. (برهوت).

- الزَّار هو الحل!

قالتها راجية بانفعالٍ.. اقترحتُ عليها أن نلجأ للعلاج النفسي.. ردَّت فيما يُشبه العويل:

- ابني مش مجنون.. ابني ملبوس.

انفعلت:

- ابنك مجنون.. متضحكيش على نفسك.

أجهشت في البكاء وأخذت ترتجف.. نظرت لي ولاء بعتاب ولوم وهي تحتضن والدتها.. أشحتُ وجهي عنهما في سخطٍ.. نهضت راجية بلا مقدماتٍ واتجهت لحجرتها.. هرعت خلفها ولاء بينما مكثتُ في مكاني أتشاجرُ مع طنٍّ من الأفكار والكلمات..

بعد برهةٍ ظهرت راجية من غرفتها وقد ارتدت ملابس الخروج وأخفت وجههَا بنقابٍ طويلٍ أسود.. نظرت لي نظرةً طويلةً تحوي حقدًا ثم خرجت من المنزل..

جاءتني ولاء متكسرة الأعصاب، وجلست بجواري وهي تتنهد في تعبٍ ويأسٍ.. قالت:

- مكنش ليهم لازمه الكلمتين بتوعك..

زفرت:

- طلعوا غصبن عني..

ثم سألتُها:

- هي رايحة فين؟

- هتروح تجيب (العريفة)[1]

غابت راجية مدة طويلة حتى دبَّ فينا القلقُ وصرتُ على وشك الخروج للبحث عنها بناء على طلب ولاء، التي وكالعادة راحت تبكي.. لكن وحين الليل قد أوشك على بسط عباءته السوداء دخلت علينا.. خلعت النقاب عن وجهها فوضح عليها التعب بينما احمرَّ وجهُها وجحظت عيناها بشدةٍ..

جرت نحوها ولاء لتطمئن عليها بينما ظللت في مكاني أراقبُ ما يحدث:

- اتفضلوا!

قالتها راجية بصوتٍ عالٍ فدخلت امرأةٌ ضخمةٌ مستديرة الوجه، تُخفي خلف ملابسها السوداء نهديْن متدليين، وتنقش يديْها بالحنَّة.. ألقت علينا سلامًا دافئًا وهي تجول ببصرها في الأرجاء..

(١) العريفة: هي المسئولة عن طقوس الزار

رددت عليهـا السـلام وأنـا أفحـصُ كل جـزءٍ في وجههـا الذي بـدا بالنسـبة لي صعـب التذكـر.. كانـت ملامحُهـا بسـيطةً لكـن يكفـي أن تديـر وجهـك عنهـا لتنسـاها سريعًـا.. شيء غريـب لم أعهـد مثلـه مـن قبـل.. علمـت فيـما بعـد أنهـا العريفـة.

دخلـت بعـد العريفـة امرأتـان أقـل منهـا حجـمًا وسـنًّا، وتبـدو عليهـما ملامـح الخنـوع والطاعـة.. كانتـا تحمـلان حقائـبَ جلديـةً تـكاد أن تنفجـر مـن كـثرة مـا تحويـه.

طلبـت راجيـة مـن ولاء أن تفتـح إحـدى الغـرف للعريفـة.. علمـت أيضًـا أنهـن سـيبقين أربعـة أيـام عندنـا.. قطعًـا أنـا لا أملـك سـلطة القبـول أو الرفـض.. فقـط سـوف أكتفـي بـدور المتفـرج وأتابـع كل مـا يجـري.

عنـد قـرب منتصـف ليلتهـم الأولى طلبـت منـي راجيـة أن أصعـد بطاهـر إلى سـطح المنـزل..

اسـتجبتُ لطلبهـا وتوجهـتُ إلى طاهـر.. كان جالسًـا عـلى طـرف سريـره وهـو يتـأوه.. حملتـه لاعنًـا اليـوم الـذي جئـتُ فيـه إلى هنـا..

حـين وصلـتُ للسـطح كانـت في انتظارنـا العريفـة وهـي ترتـدي فسـتانًا أبيـض فضفاضًـا مزينًـا بمربعـاتٍ حمـراء،

وتضـع عمامـةً خـضراء مشـغولة ومزركشـة بالخـرز والأصـداف الدقيقـة..

أشـارت لي بـأن أضـع طاهـر عـلى الأرض وتحديـدًا داخـل دائـرةٍ قامـت برسـمها.. كانـت الدائـرةُ مرسـومةً باللـون الأحمـر وقـد امتـلأت مـن الداخـل بأرقـامٍ وحـروفٍ تمـت كتابتهـا مقلوبـةً..

أسـكنت طاهـر داخـل الدائـرة ثـم توجهـت إلى راجيـة وولاء اللتـيْن اكتفتـا بالوقـوف بالقـرب مـن الجـدار الخارجـي للسـطح..

راحـت التابعتـان تدقـان عـلى دفـوفٍ كبـيرةٍ وتـدوران حـول طاهـر ببـطءٍ.. وشـيئًا فشـيئًا رحـن يـزدن مـن إيقـاعِ الدفـوف والحركـة عـلى نحـوٍ تصاعـدي..

أشـعلت العريفـة البخـورَ مـن طاسـةٍ نحاسـيةٍ فتصاعـدت أجنحـة الدخـان الرماديـة وحلقـت في الهـواء.

- الأميرة، هاك الجاوي، هاك البخور..

العريفة تُردد هذا النشيد بلا توقف.

نظـرت نحـو ولاء التـي انكمشـت داخـل نفسِـها بينـما راجيـة تتابـعُ مـا يحـدثُ في شـغفٍ.

طاهر أفاق من تخشُّبه وبدأ يدورُ حول نفسهِ ببطء ويتحرّك مثل الزومبي.. اتسعت عينا العريفة وأحضرت ديكًا أسود ذبحته فوق رأس طاهر وجعلته يشربُ من الدم الحار الذي ينسابُ عليه.. بعد أن انتهت مسحت فم طاهر بمنديلٍ فصرخ هذا الأخيرُ صرخةً مدويةً ثم انهار على الأرض بلا حراكٍ.

طلبت مني العريفة أن أحمله وأعود به إلى غرفته.. نفذت ما قالت في حين انشغلت هي بحديثٍ هامسٍ مع راجية.

اليوم الثاني..

تم تكرار كل ما سبق غير أن العريفة بدَّلت فستانها الأبيض بآخر أصفر اللون، وذبحت معزةً سوداء.

اليوم الثالث..

كان هو اليوم الأخير.. أخبرتنا العريفة أنه اليوم الذي ستُخرج فيه الجن من جسد طاهر.. ارتدت فستانًا أحمر ووضعت حول خصرها حزامًا عريضًا أزرق..

أشعلت نارًا عظيمةً ثم طلبت مني أن أضع طاهر داخل الدائرة.. صاحت ولاء:

- هتعملي فيه إيه؟

حدجتها العريفة بنظرةٍ غاضبةٍ دون أن ترد.. التفتت نحوي بعدما انتهيت من إسكان طاهر الدائرة:

- نزلها تحت أحسن!

ثم شدَّت وثاق طاهر الذي شاهت عيناه وسال الزبدُ على جانب شدقيْه وراح ينتفضُ بشدةٍ..

أفلتت مني ولاء حين هممتُ بأن أنزلها، وحاولت أن تفك وثاقه لولا أن منعتها راجية، وقالت فيما يُشبه الرجاء:

- سيبيها.. أبوس إيدك.. عاوزين نخلص!

تبادلت كلاهما النظرات والصراخ.. صاحت ولاء بأن هذا ضربٌ من الجنون.. نحَّيتها جانبًا بصعوبةٍ.. أعلم يا عزيزتي أن هذا ضربٌ من الجنون لكن الاعتراض الآن صار بلا فائدةٍ.. فقط اصمتي وتابعي مثلي ما سيحدث.

قالت العريفة بصوتٍ غليظٍ:

- أجب يا روقيائيل أنت وأعوانك العلوية، أجب يا أحمر أنت وخدامك الأرضية، بحق الملك سمسمائيل الملك الموكل بثوائم العرش طيكل، يا كسفيائيل أنت وأعوانك العلوية، أجب يا ميمون أنت وخدامك الأرضية، أجيبوا يا معاشر الأرواح الروحانية العلوية والخدام وبحق الأسماء العظام.

ثم أخرجت سوطًا من الجلد المجدول ولوَّحت به في الهواء فأصدر فرقعته المُخيفة..

- اخرج منه يا معلون.. اخرج!

حدث كل شيء بعد ذلك كلقطاتٍ متقطعةٍ بالأبيض والأسود.. صرخات تهديد ووعيد.. السوط يمرحُ فوق طاهر عدة مراتٍ.. لحم ممزق.. لكماتٌ على الجسد والوجه.. أسنانٌ تطير في الهواء.. دماء متناثرةٌ.. فجأة الحبال حول معصم طاهر تتمزَّق.. الوحش الهائج يتحرَّر.. ومن ثم العريفة تطيرُ في الهواء بعد أن طحنها طاهر بقبضته.. أوشك أن يفتك براجية وحاصرها قبل أن تهرب.. بصعوبةٍ شديدةٍ استطعت أن أقيده وأمنعه أن يُسبب المزيد من الأسى، بينما هوت ولاء على الأرض وقد أصابتها صدمةٌ عصبيةٌ.

خيَّم الصمتُ على المنزل بعد أن رحلت العريفة وبعد أن تقاضت أجرًا مُضاعفًا جرَّاء ما أصابها من أذى.

الأيام التالية قمنا بحبس طاهر في غرفته، واقتصر اتصالي به على إدخال الطعام إليه ثم الخروج سريعًا.. للأسف استحال إلى كائنٍ مُخيفٍ ولم يعد يتحدث فقط هو يصرخُ، ويصرخ.. ويصرخ.

ولاء أصابها الضمورُ وكذلك راجية.. صلة ما بينهما تنشأ واستحالت الأم إلى شبحٍ يغدو كل ليلة.

أحيانًا كنتُ أتجوَّل بالسيارة محاولًا قتل الوقت ولأخذ متنفسٍ من الحرية والخروج من جوِّ الكآبة والحزن.

- بيتهيالي إنت ندمان إنك جيت معايا!

قالتها ولاء بصوتٍ متهدجٍ وعينيْن متوجستيْن.. كنتُ وقتها أنظر من شرفة المنزل وأراقبُ إسدال الليل أستاره فوق أسطح منازل القرية المنخفضة.. التفتُّ إليها:

- آه!

لا داعـي للكـذب أو لتصنُّـع الشـهامة والفروسـية.. لسـتُ أنـا هـذا الرجـل.. أنـا بالفعـل أشـعر بالنـدم وأتمنـى لـو كنـتُ خنقتهـا.. اسـتطردت:

- بفكَّر أرجع!

أحاطتني بذراعيْها ثم أسندت رأسها إلى كتفي.. قالت:

- وتسبني هنا لوحدي!

أطلقت تنهيدةً، ثم أرسلت يدي في شَعرها:

- مش عارف..

- مش عارف إيه؟

- أنا بقول نرجع وننسى اللي حصل هنا ونكمل حياتنا!

تُخبرني أن ذلك ليس خيارًا بالنسبة لها..

للأسـف يـا عزيـزتي بقـائي أيضًـا لم يعـد كذلـك.. في الصباح كنـتُ أركـبُ سـيارتي وأغـادر.. قبـل ذلـك ودَّعتنـي ولاء أمـام بوابـة الخـروج.. احتويتهـا بـين ذراعـيَّ حـين قبَّلتهـا مُودعًـا.. شـعرتُ بجسـدها يرتعـشُ داخـلي ودموعهـا تتسـللُ عـبر قميـصي وتُبلـل صـدري.. تتـضرع:

- متسبنيش!

أجبتها هامسًا:

- إحنا لسَّه فيها.. ارجعي معايا!

لم تـرد عليَّ..بلعـتْ دموعَهـا ثـم انسـلَّت مـن بـين يـديَّ.. تركتْنـي وعـادت مهرولـةً.. ولسـببٍ مـا شـعرت أن هـذه آخـر مـرةٍ سـأراها.

الفَصْلُ الثَّامِنُ

لم يكن يجدر بي أن أتركها..

هكـذا فكَّـرت حـين عُـدت وبعـد أن ألقيـتُ بنفـسي عـلى السريـر الـذي اهتـزَّ وارتعـش كثـيرًا..

دفعــتُ وجهــي باتجــاه الســقف وشردتُ حتــى أعــماني الوقــت.. أيقظنــي رنــينُ الهاتــف يــأتي مســعورًا.. كان مديــر التحريـر يسـتفسرُ عـن تأخـري في العـودة للجريـدة.. اعتـذرت لـه وأخبرتـه أننـي سـأكونُ موجـودًا أمـام بـاب الجريـدة مـن الصبــاح الباكــر..

وبالفعـل عُـدت إلى روتـين حيـاتي مثـل نحلـةٍ بائسـةٍ تنتظرُ أن يقتلهـا دبـور.. لكـن كان لا يـكاد يمـرُّ يـومٌ دون أن يتملكنـي

الحنـين لـولاء، عـلى الرغـم مـن أننـي حاولـتُ محوَهـا مـن عقـلي إلا أنهـا ظلـت كامنـةً وراسـخةً في وجـداني..

كنـتُ فيـما مـضى أقـضي النهـار في العمـل، والليل في السـهر أو محاولـة الانتحـار بطريقـةٍ تجعلنـي رائعًـا.. الآن أنـا فقـط أتمـدد فـوق السرير أتأمـل السـقف وأفكـر فيهـا.. أخـشى أن أبـدأ العويـل عليهـا.. حقيقـي لقـد سـالت مـن عينـي دمعـةٌ أو دمعتـان لكنهـما بالتأكيـد بسـبب لفحـة هـواء!!..

أفكـر في أن أركـب سـيارتي ولا أتوقـف حتـى أصـلَ إليهـا.. لكـن أظـن أن عـودتي بهـذه السرعـة وتلـك الطريقة سـتجعلني أبـدو بمظهـر الذليـل..

كان الـتردد يقـفُ كل مـرةٍ حائـلًا بينـي وبـين مكالمتهـا.. لكنـي أكملـت الاتصـال

أسـمع جـرس المكالمـة مثـل دقـات قلبـي أثنـاء محاولتـي اسـتدعاء الكلـمات التـي سـأبدأ بهـا حديثـي.

- أنا محتاجك..

هكـذا قلـتُ حـين سـمعتُ صـوت أنفاسـها عـلى الطـرف الآخـر..

- إزيك يا مجدي!

- عامله إيه؟

- كويسة..

قالتها بوهنٍ ومرضٍ..

- مال صوتك؟

- مفيش بس شوية إرهاق.. عامل إيه؟

- أنا تمام..

ثم سكتت.. لم ترد عليَّ بشيء.. تنحنحتُ وقلتُ:

- بـصِّي.. أنـا.. أنـا كنـت.. قصـدي الجرنـال إداني أجـازة ولـو إنتـي محتجـاني في حاجـة أنـا تحـت أمـرك..

- لا.. أنا كويسة.. خليك!

سـكبت جـردلًا مليئًـا بالثلـج فـوق وجهـي الـذي التهـب حـين قالـت ذلـك.

- أنا جايلك النهاردة..

لم يعـد هنـاك بـدٌّ مـن الاعـتراف بحاجتـي لهـا.. أنهيـت المكالمـة ثـم أعـددتُ حقيبتـي بسرعـةٍ..

يقـرع شـخصٌ مـا البـاب.. لمـاذا دونًـا عـن كل الأوقـات يأتينـي- الآن مثـل هـذا الزائـر.. وضعـت حقيبتـي جانبًـا ودون أن أسـأل مَـن الطـارق فتحـتُ.. رأيـتُ شـبح رجـلٍ يقـف

منتصبًا ويختفي بعيدًا عن ضوء مصباح الردهة.. قلتُ بحنقٍ:

- مين؟

تحرَّك إلى الأمام فدخل في دائرة الضوء.. أجاب:

- إزيك يا أستاذ مجدي!

أعرفُ هذا الوجه لكن لا يحضرني الاسم.. أجبتُ:

- أهلًا وسهلًا يا..

- أنا حسن.. مش فاكرني؟

قال ذلك حين لمح تأخري في نطق اسمه.. قلتُ:

- أكيد فاكرك..

ثم لاحظت أنه يمد لي يده ليصافحني.. صافحته في حين عاد يقول:

- أنا جاي أشكرك على اللي عملته معايا..

- لا.. ولا يهمك.. ده شيء بسيط.. المهم والدك عامل إيه؟!

ثم تذكرتُ أنني أشرفتُ على دفنه بنفسي فاستدركتُ بسرعةٍ:

- قصدي أكيد زارك في الحلم ولقيته في الجنة..

ابتسم.. قال ببطءٍ:

- هو دلوقتي بين إيدين اللي خلقه..

تذكرتُ أني لم أدعه للدخول.. أفسحتُ له:

- آه.. آسف اتفضل ادخل.. وأخبارك إيه.. خرجت إمتى؟

- من أسبوع..

قالها ثم ولج إلى الداخل.. جلس على مقعدٍ في منتصف غرفة الجلوس ثم دار بعينيْه سريعًا فيها حتى استقرَّ بصرُه على حقيبة سفري، بينما قلتُ:

- ألف مبروك..

لم أدر بعد ذلك ما أقول.. كنتُ مُتعجلًا وأرغب في رحيله، لكن المفترض أن أجلس معه حتى يُنهي زيارته.. قررتُ أن أصبر معه عشر دقائق بعدها سوف أقوم بطردِه.. وكان هذا ما حدث.

وصلت إلى ولاء عصرًا.. استقبلتني أمام المنزل بابتسامةٍ كئيبةٍ:

- متوقعتش إنك هترجع..

رددت عليها وأنا أتفرس ملامحها التي غدت أكثر شحوبًا:

- وأديني خيبت ظنك..
- رجعت ليه.. عاوز تنام معايا؟

قاسية معي أكثر من اللازم هذه المرة.. قلتُ:

- ظنك تاني مش في محله.. أنا رجعت لأني مش حاسس بالحياة من غيرك..

ابتسمت ابتسامةً مثل إشراقة شمس نهار ربيعي وجذبتني للداخل.. وهكذا أمضيتُ معها بقية اليوم دون أن نتطرق للحديث من قريبٍ أو بعيدٍ حول طاهر.. هو في أسوأ حال ولا داعي لتوقع الأحسن.. ودون أن أدخل عليه أنا متأكد أنه الآن ممدَّد على الفراش يُحدق في الظلام ويُجادل أشباحًا ومسوخًا غير موجودة.

ضرب المطر نافذة غرفة نومنا فاستيقظت ولاء مذعورةً.. توقفت نظراتُها الزائغة على وجهي حين انتبهت لها.. ابتسمت لها ابتسامة طمأنينة:

- متخافيش.. ده المطر!

حاولت أن تتكلم لكن الكلام تجمَّد في حلقها.. ناولتها كوب ماء نهلت منه كمن لم تشرب منذ سنواتٍ.. وضعت الكوب جانبًا وقد هدأت قليلًا.. بعد أن استجمعت عقلها ولملمت شتات نفسها حكت لي أنها رأت حلمًا مُزعجًا.. رأت طاهر يسيرُ محنيَّ الظهر، وهو يرتدي جلبابًا من الخيش، ويحملُ فوق ظهره شيطانًا يأكلُ من رأسهِ..

- أضغاث أحلام يا حبيتي و..

قطعت عبارتي صرخةُ طاهر وهي تأتينا محمومةً.. نهضت ولاء من الفراش.. اعترضت:

- سيبك منه.. هيصرخ صرختين تلاته وبعدين سيهدأ..

لكنها لم تلتفت لكلامي وارتدت شالًا ثقيلًا واتجهت للأسفل.. تتبعتُها لا لشيء سوى أنني أخشى عليها..

استقبلتنا زمجرةٌ غاضبةٌ من طاهر.. ولاء نظرت من فتحة الباب الصغيرة.. قالت:

- مش شيفاه..

أزحتها جانبًا ونظرتُ.. الغرفة تبتلعها ظلمةٌ سرمدية.. لا شك أنه يختبئ داخلها.. فتحت قفل الباب ودخلتُ.. دست في شيء لزجٍ قبل أن تنفجر قنبلة من الروائح الكريهة..

ضغطت زر النور.. كان حذائي مغروسًا وسط كتلة بنية مائعة هي عبارة عن فضلات طاهر..

حركت قدمي باشمئزازٍ عدة مرات ووضعت يدي على أنفي.

في ركن الغرفة كان طاهر يقفُ منتصبًا في مواجهة الحائط وهو يُولينا ظهره ويتطوح يمينًا ويسارًا، بينما يخرج منه صوتٌ مثل أهازيج الناي.. نادته ولاء وهي تقتربُ منه:

- طاهر.. إنت بخير؟

لم يُجبها.. اكتفى بأن طوَّح جسده إلى الأمام قليلًا ثم إلى الوراء.. ثم التفت نحونا فجأةً..

تجمَّدت في مكاني..

كان وجهه قد استحال إلى لوحةٍ بشعةٍ من الرعب وقد انقلبت عيناه بيضاوين مشقوقتين بالطول..

وثب نحوي بغتةً.. يرميني في الهواء بقوةٍ لم أعهده بها.. العالم يدورُ من حولي سريعًا دون أجد الفرصة للصراخ الطبيعي.. من حقي أن أصرخ ولو مرة..

ارتطمت بالجدار قبل أن تسقط لوحةٌ زيتيةٌ فوق رأسي.. ستار رمادي يهبط أمامي، ووعي ينسحبُ تدريجيًّا مع خيطٍ من الدماء الدافئة يسيلُ من جرح جبهتي..

طاهر يقتربُ مني بوحشية ضبعٍ على وشك تمزيق فريسته..

لمحتُ سكينًا في يده حين لمع نصلها الحاد.. ما زال الستار الرمادي يهبطُ.. يا إلهي.. لماذا لا ينتهي سريعًا.. لا أرغب أن أكون واعيًا حين تخترق السكين معدتي أو تقطع عنقي.

ولاء تعترض طريق طاهر وتقف حائلًا بيني وبينه.. لا.. ارجعي.. إنه ليس أخاكي..

طاهر يضربُ رأسها بقبضته.. تراجعت للوراء وهي تضع يدها على صدغها، لكنها ما زالت تدافعُ عني بجسدها.. سقط عنها الشال أمامي.. حاولت أن أقفزَ عليه.. عجزتُ.. بالكاد رفعت يدي.. بصعوبةٍ نطقت:

- اهربي!

لم تستجب لرجائي.. قالت بتوسلٍ وهي تمدُّ يدها للحيلولة بيني وبين طاهر:

- ارجع يا طاهر!

أجابها بصوتٍ أشبه بالفحيح:

- طاهر مين؟

ثم أمعن النظر فيها طويلًا وزمجر، ثم ركل مقعدًا في اتجاهها، فانحنت لتتفاداه وهي تحمي وجهها بيدها، وقبل أن تعودَ لوضعها كان قد انقضَّ عليها ولكمها بقسوةٍ في معدتها جعلها تطيرُ وتصطدم بالحائط.. انفجرت الدماء من فمها وتلوت على الأرض..

انحنى نحوها ثم قبض على شَعرها ورفعها بقسوةٍ.. حركت رأسها بوهنٍ في محاولةٍ يائسةٍ للإفلات منه.. ضرب رأسها في الأرض بقوةٍ ساحقةٍ كمن يُحاول تحطيم جوزة هند.. ندَّت منها آهةٌ مكتومةٌ مع صوت هدير عظامها.. سكن جسدُها تمامًا ثم راحت بركة صغيرة من الدماء القانية تتوسع من حولها ببطء.. شديد.

تابعت طاهر وهو يقتربُ مني مزمجرًا كالمسعور..

الموت يبدو كريهًا الآن..

ثم وبلا إنذار سقط طاهر على الأرض وقد أصيب بتشنجاتٍ عنيفةٍ فبدأ أشبه بحيوانٍ مفترسٍ على وشك الاحتضار..

بعد دقائق كنتُ قد استعدت السيطرة على نفسي.. نهضت مترنحًا باتجاه ولاء.. رأيتها شاحبة وتبدو في النزع الأخير..

في تلك اللحظة دخلت راجية.. هالها ما حدث وتجمَّدت في مكانها مثل صنم.. نظرت إلى طاهر الذي رقد مفتوح العينيْن وقد غرق في بحرٍ من العرق الأسود.. اقتربت مرتعشةً ومدَّت يدها تتحسس وجه ولاء.. بكت في مرارة .. صرخت:

- اااااااه..

ثم هوت فاقدة الوعي.

لم أنتظر أكثر من ذلك.. حملت ولاء وذهبت بها إلى المستشفى.. تم وضعها في غرفة العناية المركزة بين الحياة والموت، وكلتا الكلمتين (الحياة والموت) لا تعنيان لي أكثر من مجرد حروف منطوقة.

أمضيـت اليـوم كلـه بجـوار غرفتهـا حيـث تـم منـع الدخـول إليهـا..

في اليـوم التـالي وبمسـاعدة عبَّـاس صرتُ قـادرًا عـلى رؤيتهـا.. ارتديـتُ كمامـة عـلى فمـي وجلسـتُ بجوارهـا.. كانـت مسـتلقيةً في سريـرٍ بينـما قنـاع الأكسـجين يُغطـي نصـف وجههـا، وقـد اتصـل بجسـدها كل أنـواع المعـدات والأجهـزة الطبيـة الغريبـة التـي لا أعـرف مُسـمًّى لهـا..

تأملـتُ وجههَـا.. ربمـا كانـت هـذه المـرة الأولى التـي أتأملها فيهـا.. قسـماتها تبـدو مختلفـةً وعليهـا سـكينةٌ وسـلام لم أعهدهـما مـن قبـل..

دخل عباس وقال بتوترٍ:

ـ قدامك خمس دقايق..

ثم خرج وتركنا.

أمسكت يدها.. باردة لكنها ملأت قلبي دفئًا:

ـ ولاء!

وكأنهـا سـمعتني فتحـت عينيْهـا بصعوبـةٍ.. فرحـت كـما لم أفـرح مـن قبـل.. قلـتُ بلهفـةٍ:

ـ حمدًا لله على سلامتك يا حبيبتي..

ـ أنا فين؟

قالت وعيناها تزيغان.. أجبتها:

ـ متقلقيش هتكوني كويسة..

ابتسمت بصعوبةٍ:

ـ بجد..؟

ـ طبعًا.. إنتي عارفاني مبعرفش أكدب..

ـ حسَّه أن..

وبـترت كلامهـا ثـم أدارت وجههـا في الأرجـاء قبـل أن تسـتطرد بأسـفٍ:

ـ نهايتي هتكون هنا..

ـ بطلي تخاريف.. إنتي زي الفل..

قلتهـا بصـوتٍ طبيعـي محـاولًا إخفـاء الألم الـذي اعتـصر صـدري.. رفعـت يدهـا بصعوبـةٍ نحـو وجهـي تحـاول أن تلمسـه لكـن أصابعهـا ارتعشـت قبـل تسـقط يدهـا فجـأةً.. تناولتهـا بحنـانٍ ثـم وضعتهـا عـلى خـدي.. ابتسـمت بوهـنٍ:

ـ طول عمرك أبيض من جوَّه..

أحسسـتُ بترقـرق الدمـوع في عينـيَّ.. دنـوتُ بوجهـي منهـا وقبَّلتهـا:

- وإنتي طول عمرك قمر..

- طاهر عامل إيه؟

- محبوس في البيت..

- إوعدني إنك هتنقذه!

عادت تقول بوهنٍ حين لم أجبها:

- إوعدني يا مجدي!

أومـأت لهـا بـرأسي.. ابتسـمتْ مسـتريحةً.. حاولـتْ أن تتكلـم مـن جديـدٍ.. توقَّـف الـكلام في حلقهـا.. انتابتهـا رعشـةٌ قويـةٌ ثـم سـقط رأسـها إلى الـوراء وتركتنـي وحيـدًا.. إلى الأبـد.

الفَصْلُ التَّاسِعُ

تابعـتُ بمـرارةٍ كالعَلقـمِ وهـم يضعـون ولاء في القـبر ثـم يُغلقونـه عليهـا..

لـن أراهـا بعـد الآن.. كل ضحكاتهـا، أمانيهـا، وأحلامهـا، اختفـت وابتلعهـا هـذا المـكانُ الضيـق المُظلـم..

تمنيـتُ أن أعـودَ بهـا وأدفنهـا في القاهـرة بعيـدًا عـن هـذه القريـة اللعينـة.. وضعـتُ يـدي عـلى وجهـي وضغطـتُ حتـى كـدت أن أسـحقه..

فجـأةً أحسسـتُ بأمـرٍ غريـبٍ يحـدثُ.. رفعـت وجهـي نحـو الأعـلى.. كانـت الشـمس تتحـركُ مـن مكانهـا ثـم تختفـي وراء غيمـةٍ سـوداء تُشـبه رأس الشـيطان، فحـلَّ الظـلام بغتـةً وهبـط علينـا مثـل المـوت..

توجهت الأبصارُ نحو السماء التي اتخذت شكلًا مُرعبًا، وساد الهلعُ والفوضى أرض المقابر..

أشعل البعضُ كشافاتٍ صغيرةً فبدَّدت جزءًا من الظلام..

تحرَّك غطاءُ مقبرة ولاء وانزاح جانبًا.. من داخل القبر بدا يتصاعدُ ضبابٌ أبيض.. خرجت يدٌ من وسط الضباب فصرخ الناس وفرُّوا هاربين وهم يُحوقلون ويُبسملون..

ولاء تخرجُ من القبر وهي ملفوفةٌ في الكفن الأبيض.. ازداد الضبابُ وصار أكثر كثافةً حتى اختفت ولاء داخله..

درتُ حول نفسي لأكتشفَ أني ضائعٌ ووحيدٌ.. صوتُ فحيحٍ غاضبٍ يأتيني من كل مكان.. ناديتُ:

- ولاء!

لا إجابة..

شعرتُ بشيء يتسلقُ قدمي.. نظرتُ إلى الأسفل.. نباتٌ غريبٌ التفَّ حول ساقي مثل الثعبان.. منعني تمامًا من الحركة.. حاولتُ أن أنزعه.. أشواكه أدمت يدي.. ثم قبضتْ يدٌ قاسيةٌ على يدي.. وجه ولاء الميت يبرزُ من وسط الضباب وتُحدق بي بعينيْن بيضاويْن مائعتيْن.. رددتُ في هلعٍ:

- ولاء!

دارت من حولي مثل مفترسٍ يتخير موضع التهام فريسته.. النبات الغريب يزدادُ ويلتفُّ حول كامل جسدي.. صرتُ مغروزًا في الأرض عاجزًا عن تحريك أي عضلةٍ لديَّ..

ولاء تُمسك برأسي.. أرى مخالبَ سوداء لها.. تخدشُ رأسي وتُمزق جزءًا من وجهي ثم تخنقني بلا رحمةٍ.. أنفاسي تضيعُ بسرعةٍ.. الألم حاد في صدري.. أشعرُ أنني أحترقُ دون لهيبٍ أو نارٍ.. حاولتُ أن أصرخَ.. أسقطتني على الأرض وهي تُلصق وجههَا بوجهي.. مخيفةً.. حاولتُ أن أصرخ.. فشلتُ.. نجحتُ.. صرختُ.

رنينُ الهاتف انتزعني من هلوستي..

أجفلتُ للحظةٍ حتى استوعبت.. تفحَّصت رقم المتصل.. لا أعرفه.. وضعت طرف الهاتف على أذني:

- نعم!

- إزيك يا أستاذ مجدي!

صوتُ رجلٍ على الطرفِ الآخر.. يبدو لي مألوفًا بعض الشيء لكن لا أميِّزه:

- مين معايا؟

- أنا حسن.. أخبارك إيه؟

يُخبرني أنه يشعرُ بالقلق حيالي.. أجبته باقتضابٍ:

- أنا كويس!

لاحظ بالتأكيد نبرة صوتي وطريقتي في الحديث لذا سأل:

- خير يا أستاذ مجدي.. فيه حاجة؟

لم أكن أرغبُ في الاستطراد معه، لكني وجدتُ نفسي أخبره بأن زوجتي ماتت.. واساني بسرعةٍ، ثم أنهى المكالمة بسرعةٍ على عكس ما توقعتُ.. أزحته من تفكيري، ثم انتظرتُ حتى انتهت عملية الدفن وراح المشيعون ينسلُّون واحدًا تلو الآخر..

اتخذتُ لنفسي طريقًا مختلفًا وسرتُ فيه.. بعد أن خرجتُ من المقابر شعرتُ بألمٍ في رأسي.. تحسستُ رأسي مُستكشفًا.. آثار مخالبٍ محفورة فيها.. ثم هوى قلبي وسقط في حفرةٍ باردةٍ.

- شدِّ حيلَك يا أستاذ مجدي!

فُوجئتُ بحسن أمامي في اليوم الأخير للعزاء وهو يقولُ ذلك.. لا أعرفُ كيف اهتدى إلى عنواني لكن ببعض التخمين قد يكون توصَّل إليه من الجريدة التي أعمل بها.. على الرغم من عدم معرفتي الوثيقة به إلا أنني أحسستُ ببعض الغبطة لوجودِه..

ظلَّ بجواري حتى انتهى اليوم واستعدَّ للرحيلِ.. كانت راجية قد اشتدَّ مرضُها وأصيبت ببوادر انهيارٍ عصبي وتم حجزُها في المستشفى، لذا طلبتُ منه المبيت معي.. رفض في البداية وأخبرني أن لديه مشاغل كثيرة.. صمَّمتُ على موقفي ورفضتُ أن أحيد عنه فاستجاب.. سرتُ معه وقلبي مثقلٌ بالهمِّ والغمِّ.

كانت صرخة طاهر التي جلجلت هي أول ما استقبلنا.. لم أخفْ أو حتى يطرفُ رمشٌ في جفني، بينما التوترُ أصاب حسن، ولمحتُ السؤال على طرف لسانه، لكنه ألجمه والتزم حُسن الأدب..

دوَّت صرخةٌ أخرى أجفل لها حسن.. قلتُ وأنا أضع يدي على كتفهِ:

- ده طاهر..

ثـم حكيـتُ لـه باختصـارٍ شـديدٍ مـا جـرى لـه.. طلـب أن يـرى طاهـر.. وافقـتُ عـلى مضـضٍ..

أدخلتـه عـلى طاهـر الـذي كان مُسـتلقيًا عـلى الأرض مثـل الأمـوات.. راح حسـن يتأمـل الرسـم الموجـود عـلى الحائـط.. سـألني:

- هو اللي رسم ده؟

أومـأتُ بـرأسي.. تجهَّـم وجهُـه وعـاد يتفحَّـص الرسـم مـرةً أخرى:

- ده رسم شيطاني!

قالهـا في وجهـي فشـعرتُ أنـه لكمنـي في معـدتي.. اسـتطرد قا ئلًا:

- والـدي كانـت لـه كرامـات وعـارف في أمـور الجـن.. أنـا عنـدي خـبرة لا بـأس بهـا.

جذب كلامُه اهتمامي.. عاد يقول:

- هو بيحاول يبلغكم رسالة..

أخبرتـه بشـأن الكلمـة (برهـوت) التـى دوَّت في عقـلي حـين شـاهدتُ الرسـمة للمـرة الأولى.. نظـر لي وقـد انقلبـت ملامحُـه إلى الجديـة الكاملة:

- عاوزك تحكي لي كل حاجة وبالتفصيل المملّ!

دهشـتُ جـدًّا للتغيـير الـذي طـرأ عليـه.. لكـن وكـما يُقـال في الأمثـال حكيـتُ لـه مـن طـق طـق إلى سـلامو عليكـو.. كان وجهـهُ يمتقـعُ تـارةً ويحمـرُّ تـارةً أخـرى وهـو يسـتمعُ لمـا أقـولُ صامتًـا ودون أن يُبـدي أي ملاحظـةٍ..

بعـد أن انتهيـتُ مـن كلامـي أشـعل حسـن بعـض البخـور وراح يُـردد ترنيمـةً غريبـةً.. مـع كل كلمـةٍ كان ينطـقُ بهـا كان طاهـر ينتفـضُ، ثـم انتصـب فجـأةً واقفًـا بـلا حـراكٍ.

- برهوت!

نطـق بهـا حسـن في وجـه طاهـر الـذي ظـلَّ مُتصلبًـا مثـل تمثـالٍ حجـري.. لم يبـدو أنـه سـمعه.. نظـرتُ في عينيْـه فرأيـتُ فراغًـا وغيابًـا.. مـددتُ يـدي وحاولـتُ أن أحركـه مـن مكانـهِ.. كان راسـخًا حتـى أننـي عجـزتُ عـن تحريكـهِ قيـد أنملـة، كأن هنـاك قـوةً جبـارةً تُثبتـه في موضعـهِ.

فجـأةً التفـت نحـوي.. ضاعـت نظـرةُ الفـراغ وحلـت محلهـا نظـرةٌ أخـرى مُخيفـة.. خرجـت منـه حشرجـةٌ طويلـةٌ ميَّـزت منهـا بضـعَ كلـماتٍ بـلا معنـى.. للحظـةٍ ذهـب بي الظـن أنـه يُحـدِّث شـخصًا مـا يقـفُ خلفـي مبـاشرةً.. رأيـتُ

الذعـر يجـري في ملامـح حسـن.. اهتـزَّت الجـدران وظننـتُ أن السـقف سـينطبقُ فوقنـا ثـم تهشَّـم كل زجـاج النوافـذ الموجـود في الغرفـة كأن يـدًا خفيَّـةً حطَّمتـه في آنٍ واحـدٍ، ودخلـت ريـحٌ قويـةٌ أطـارت كل مـا فـوق الأرض..

حاولـتُ أن أحمـي وجهـي بيـدي مـن الزجـاج المتطايـر.. شـعرتُ بعـشراتِ الوخـزات في يـدي والزجـاج ينغمـسُ بهـا..

حـين سـكن الأمـر رفعـتُ وجهـي أرى النتيجـة.. كان المشـهدُ مُرعبًـا.. مـا زال طاهـر في منتصـف الغرفـة دون أن يتسـنَّه شيء، عـدا ذلـك كل شيء كان مُدمـرًا.

أخـبرني حسـن أنـه لم يـر مثـل ذلـك مـن قبـل.. صحيـح أنـه أشرف مـع والـده مـن قبـل عـلى عـلاج عـشراتٍ مـن حـالات لبـس الجـن إلا أن مـا شـاهده يفـوق قـدرات الجـن أو القريـن.

- اللي حضَّر العفريت يصرفه!

هكـذا قـال حسـن.. كان لا بـد مـن زيـارةٍ للسـيناوي حتـى نعـرفَ الـشيء الـذي يُسـيطر عـلى طاهـر.. لـذا وحـين كان نـورُ النهـار عـلى وشـك الانطفـاء انطلقـتُ بالسـيارة إلى منـزل السـيناوي بينـما ظـل حسـن مـع طاهـر في محاولـةٍ منـه لتحصـين المنـزل وغسـله بالمـاء والملـح..

عندمـا وصلـتُ للسـيناوي أوقفـتُ السـيارة عـلى مسـافةٍ غـير بعيـدةٍ مـن المنـزل ثـم ترجَّلـت منهـا غـير عابـئ بنبـاحِ الـكلاب الضَّالـة..

ضممـتُ معطفـي درءًا لموجـة الـبرد القارصـة، ثـم رفعـتُ الياقـة وأحنيـتُ رأسي بينهـا متلمسًـا بعـض الـدفء..

طرقـتُ البـاب ودون أن أنتظـر ردًّا دفعتـه بقدمـي فاسـتجاب لي ثـم دخلـتُ.. وجـدتُ السـيناوي يجلـسُ عـلى الأرض وأمامـه كومـة حطـب مُشـتعلة..

- تعال اتدفا!

قالهـا لي وهـو يُلقـي كومـةً جديـدةً مـن الحطـب فـوق النـار فتتوهـجُ وتُلقـي ظلالهـا عـلى وجهـهِ مثـل شـياطين تتراقـص..

- (برهوت)..

نطقـتُ بهـا في وجـه السـيناوي.. أو بالأحـرى قذفتُـه بهـا.. سـعل لحظـةً، ثـم قـال:

- مش فاهم!

وأشاح بوجهه عني.. وضعتُ يدي على كتفه:

- لا إنت عارف وإلا مكنتش حاولت تخبي وشك اللي اصفرّ دلوقتي،

ثم أدرتُ وجهَه نحوي.. كان بالفعل أصفر شاحبًا.. أردفتُ:

- أتكلم!

صمت طويلًا.. أخرجتُ سكينًا يبلغ طولها نصف الذراع، حركتها أمامه فانحلَّت عقدة لسانِه..

أخبرني وهو ينفخُ في النار حتى تتأجج، أن برهوت هي مكانٌ لمقبرةٍ في التل الأحمر كانت ملكًا لأحد كهنة الفرعون في دولة مصر القديمة، وأن الكاهن استعان بالجن لبنائها من أجل إخفاء كنوزِهِ، وعندما مات الكاهن استوطن أتباعُه من الجن البئر؛ ولهذا السبب أطلق عليها "برهوت" ومعناها (مملكة الجن)..

- عملت إيه بالضبط في طاهر؟

أخبرني بأنه عقد عليه عقدة سحرٍ أسود لتحضير أحد ملوك الجن ويُدعى (سوميا)، ولأن الأمر لا يخلو من تمرد سوميا، فإن السيطرة عليه لا بد أن تكون بيد أحد بني الإنس، وفي حالة طاهر كانت الوحيدة القادرة

على السيطرة عليه وإخراجه هي دلال.. نعم دلال.. طاهر أحضر خصلةً من شعرِها وجعلها العُنصر المُسيطر دون أن تعلم.. وحين ماتت تحرَّر سوميا واستحوذ على طاهر، ثم ختم السيناوي كلامه:

- (سوميا) مكانه هناك.. في برهوت..

- عاوزك تيجي تصرفه!

- محدِّش يقدر يصرف سوميا.. وطاهر لازم يموت..

ثم أطلق ضحكةً عاليةً..

- بتخاف من الموت؟

قالها السيناوي وهو يسكبُ قليلًا من الجاز على النار فيزداد حجمُها ولهيبُها..

- آخر حاجة أخاف منها..

- طيب بتخاف من إيه؟

- أنا عايش من غير خوف..

- لكن مفيش إنسان يقدر يعيش من غير خوف.. الخوف والطمع هما اللي اتبنت عليه الدنيا..

ـ الدنيا اتبنت على الحب..

ضحك:

ـ الحب.. الحب ده المعنى المهذب للجنس..

هممـتُ بالنهـوض لأنهـي هـذا الجـدال السـخيف.. اسـتدرك قائـلًا:

ـ لو حاولت تنقذ طاهر هيلبسك مكانه..

ـ وعد ولازم أوفي به..

تشوَّهت قسماته فجأةً وصرخ:

ـ اللي بتفكر فيه هيكون معاه نهايتي قبل نهايتك..

لم أعبـأ بكلامـه.. هممـتُ بالخـروج.. قبضتـان مـن حديـدٍ أحاطتـا بعنقـي.. جحظـت عينـاي بينـما هـو يعتـصرُ عنقـي الـذي راح يتداعـى بسرعـةٍ.. المـوتُ يقـتربُ منـي سريعًـا.. مـددتُ يـدي بصعوبـةٍ مُحـاولًا إزاحـة اليـد.. كان أمـرًا مُسـتحيلًا.. بقايـا ذرات الأكسـجين في رئتـي أوشـكت عـلى النفـاد.. صراخ السـيناوي المسـعور يـتردد:

ـ هقتلك وأدفنك هنا!

بآخـر طاقتـي عضضـتُ ذراعـه وجذبـتُ أذنـه بقـوةٍ فأرغمتـه عـلى إفـلاتي، وقبـل أن يتمالـك نفسَـه طوَّحـتُ

قدمـي بـين سـاقيْه فـصرخ ثـم سـقط عـلى الأرض، لكنـه نهـض سريعًـا وعـاد ينقـضُّ عـليَّ.. ألقيـتُ نفسـي بعيـدًا عنـه ثـم دفعـتُ الحطـب المشـتعلَ في اتجاهـه.. حـاول أن يتفـاداه لكنـه اصطـدم في وجهـهِ وأعمـى عينـه.. انزويـتُ في أحـد الأركان بينـما راح يـصرخُ وهـو يـضربُ بيـده في كل اتجـاه:

ـ اااااااااااااه..

كان مثـل ثـورٍ هائـجٍ فقـد قائـدَه فطـاح يُدمـر كلَّ مـا حولـه.. جـاءت ضربتُـه في إنـاء الجـاز فأسـقطه أرضًـا وسرعـان مـا لامـس النـار التـي هاجـت بسرعـةٍ وزحفـت عـلى الأرض والجـدران مثـل ثعبـانٍ سـامٍّ وأحاطـت بالسـيناوي..

فكَّـرت أن أنقـذه.. حقيقـي فكـرت.. لكـن فجـأةً انهـار جـزءٌ مـن السـقف مُحدثًـا ضجـةً كبـيرةً وظهـرت فجـوةٌ واسـعةٌ مكانـه بـان مـن خلفهـا ظـلامُ الليلـة ونجومهـا المتناثـرة.. حـدث كل ذلـك في لحظـاتٍ قليلـةٍ.. تلمَّسـتُ لنفسـي موطئًـا للهـربِ ثـم هرولـتُ بـلا لحظـة تفكـيرٍ أخـرى يُتابعنـي صراخ السـيناوي والنـيران تأكلـه بـلا رحمـةٍ..

وقفـتُ مـن بعيـدٍ أتابـعُ الحريـقَ.. بقـي المنـزلُ مشـتعلًا والنـار تعـوي فيـه مثـل ذئـابٍ متوحشـةٍ.. كان بإمـكانِ الأهـالي إطفـاء الحريـق لكنهـم اكتفـوا بالنظـر والمتابعـةِ.. حـين انتهـى كلُّ شيءٍ انـصرف الجميـعُ إلى منازلهِـم وكأنَّ شـيئًا لم يكـن..

عـدتُ للسـيارةِ وانطلقـتُ بهـا عائـدًا يُسـابقني قمـرُ الليـل الدمـوي، بينـما تُطـاردني تـلالٌ مـن الرمـل الأحمـر والأسـود.. وأيضًـا تـلالٌ مـن الخـوف.

الفَصْلُ العَاشِرُ

- حسن!

ناديـتُ عـلى حسـن حـين دخلـتُ المنـزل الـذي وجدتـه يغـرقُ في ظـلامٍ دامـسٍ وسـكونٍ عجيـبٍ.. لكـن فجـأةً اخـترق هـذا السـكونَ أنـينٌ.. أنـينٌ يتـسرَّبُ مـن حجـرةِ طاهـر.. أحسسـتُ برجفـةٍ مبهمـةٍ تسـتولي عـلى روحـي.. اقتربـتُ مـن بـابِ الحجـرة.. كان القفـلُ الموضـوعُ فوقهـا مُلقـى عـلى الأرض وقـد تـم تحطيمُـه.. فتحـت البـابَ برفـقٍ.. في الداخـل اصطدمـتْ عينـاي بحسـن وهـو مُقيـد عـلى الأرضِ وقـد وضعـت كمامـة فـوق فمـه.. جحظـتْ عينـاه بمجـرد أن رآني وتمتـم بـكلامٍ مسـعورٍ مـن وراء الكمامـة لم يُمكنني تمييـزُه ولكـن أمكننـي فهمـه.. فعـلى امتـداد بـصري رأيـتُ هتلـر

يلـوي ذراع طاهـر ويقـودُه أمامـه شـاهرًا طبنجـة ضخمـةً في وجهـي.. بجـوار هتلـر كان يقـفُ رجـلٌ طويـلُ الذقـن مهلهـلُ الثيـاب ويضـع حـول عنقـه عـشرات السـبح والتعاويـذ.. قـال هتلـر وهـو يلهـثُ:

- أنـا مـش عـاوز أأذي حـدّ.. أنـا جبـت معايـا الشـيخ.. هناخـد طاهـر يسـحب لينـا المقـبرة.. آخـد نصيبـي ومـش هتشـوفوني تـاني..

تبادلـتُ النظـر بينـه وبـين حسـن وطاهـر الـذي كان مستسـلمًا ومُسـتكينًا تمامًـا.. رفعـت يـدي وقلـتُ:

- أنا مش هقاوم ولا حاجة.. إعمل اللي إنت عاوزه..

لوَّح لي هتلر بالطبنجة وهو يجذبُ طاهر:

- قدَّامي!

ثـم هبطنـا إلى النفـق.. أشـعل هتلـر مصباحًـا ضخـمًا وسرنـا حتـى وصلنـا إلى مـكان المقـبرة التـي اختفـتْ، ثـم أشـار إلى مكانِهـا مُخاطبًـا الشـيخ:

- كانت هنا..

أخـرج الشـيخُ مـن جيبـه حجابًـا ووضعـه حـول عنـق طاهـر.. ردَّد بعـض التعاويـذ مـن سـحر الجـان ثـم دقَّ وتـدًا في الأرض، وأشـار لي بـأن أحفـر.. وبالفعـلِ بـاشرتُ العمـل..

وبعـد سـاعتيْن وبعـد أن أوشـكتُ عـلى السـقوط تعبًـا.. صرخ طاهـر وقـد انقلبـت ملامحُـه:

- أنا ملك الملوك!

تلوَّن وجهُ الشيخ:

- الزم مكانك يا ملعون!

قالهـا بصـوتٍ جَهْـوَرِيٍّ وهـو ينـثرُ مـادةً أشـبه بالحنَّـاء في وجـه طاهـر.. قـال هتلـر وهـو يضـعُ يـدَه عـلى كتـف طاهـر:

- إهدى يا طاهر.. أنا..

وقبـل أن يكمـل جملتَـه قبـض طاهـر عـلى عنقـهِ ثـم رفعَـه عاليًـا بيـدٍ واحـدةٍ.. تراجـع الشـيخُ للـوراء وهـو يُـردد:

- يا حفيظ!

ثـم طـوَّح طاهـر بهتلـر في الهـواء مثـل دميـةٍ صغـيرةٍ فارتطـم بالجـدارِ وهـوى فاقـد الوعـي بعدمـا تهشَّـم المصبـاحُ بجـواره وابتلعنـا الظـلام..

رحـتُ أبحـثُ في الظلمـة الحالكـةِ بدافـعٍ غريـزي وأرهـفُ سـمعي إلى صـوت الخطـوات التـي تتحـرَّك ثقيلـةً وبطيئـةً، ومـا هـي إلا لحظـاتٌ حتـى سـمعتُ حشرجـةً مـن الشـيخ،

ثم صوت كسر عنقٍ أعقبته آهةٌ مكتومةٌ وسقوط جسدٍ على الأرض..

سمعتُ صوتًا خافتًا غليظًا:

- مجدي!

حاولتُ الاستعانة بذاكرتي وبدأتُ أسيرُ في النفق باتجاه الخروج.. وما أن شرعتُ في اعتلاء الدرج حتى اهتزَّت الأرضُ من تحتي وكدت أسقط.. تهاوت الأعمدة الخشبية التي تحفظ النفق من الانهيار واختلط الغبارُ بالصخور التي راحت تسقطُ.. بصعوبةٍ شديدةٍ أكملتُ الصعود قبل أن يحدثَ الانهيارُ التام..

لم أكد أصبح في الخارج حتى انفجرت كومةُ غبار من تحت الأرض وتهاوى النفقُ.. وكل مَن داخله قد مات.. حتى طاهر.. الآن انتهى الأمرُ.. عُدت إلى حسن ثم فككتُ وثاقه..

لحظةً وسمعتُ حركةً من خلفي.. التفتُّ نحوها فرأيتُ عينيْن تنظران لي مع ابتسامةٍ ميتةٍ.. عينان لشخصٍ يُدعى طاهر!

لم يكن هناك تفسيرٌ لنجاة طاهر من الانهيار سوى أن الجن هو مَن أخرجه.. ابتعدتُ عنه أنا وحسن، ثم أخبرتُ هذا الأخير بكلِّ ما جرى بيني وبين السيناوي وما دار بخصوص برهوت وملك الجن سوميا.. قال إنه كان يتوقع شيئًا من هذا القبيل، ثم أخبرني أنه يحتاجُ أن يعودَ إلى مكتبة والده للحصولِ على الأدوات والكتب اللازمة لمواجهة مخلوقٍ بمثل تلك القوة..

أعرته سيارتي فانطلق بها دون تأخير.. تأكدتُ من إحكام القفلِ على بابِ طاهر، ثم قضيتُ بقية الوقت أتحاورُ مع نفسي..

بعد مرور بضع ساعاتٍ مرَّت كالدهر، جاء حسن وهو يحملُ جوالًا كبيرًا مليئًا بكتب والده الخاصة بالسحر وتحضير الجن..

أفرغ محتويات الجوال على الأرض، ثم انتقى منها كتابًا ضخمًا مصنوعًا من الجلد ومكتوبًا بحروفٍ من الدم.. قرأتُ اسم الكتاب: "شمس المعارف ولطائف العوارف"..

بحثنا عن أي معلومةٍ حول سوميا.. وبالفعلِ وجدنا له صورةً تخيليةً مُرعبةً مع كلامٍ أكثر رعبًا..

بعـد بحـثٍ وتمحيـصٍ اكتشـفنا طريقـةً وحيـدةً لتحريـر طاهـر.. تلـك الطريقـةُ هـي أن نقتـلَ ملـك الجـن.. سـوميا.



الفَصْلُ الحَادِي عَشَر

لقتلِ مخلوقٍ من الجن نحتاجُ إلى ثلاثة أشياء:

- قرن شيطان..
- دماء بشرية..
- عين ميت..

كان حسـن يمتلـك قـرنَ شـيطانٍ، وهـو يُشـبه إلى حـدٍّ كبـيرٍ قَـرن جَـدْي عجـوزٍ، وإن كان ذا حجـمٍ أصغـر وأطـول، ولـه رهبـةٌ عجيبـةٌ في النفـس بمجـرد أن تـراه.. تبقَّـى لدينـا غَرضَـان لنحصـلَ عليهـما.. الدمـاء، والعـين.. وللحصـولِ عليهـما كان لا بـد مـن الذهـابِ إلى مـكانٍ واحـدٍ ومصـدرٍ واحـدٍ.. إلى عبَّـاس.

وهكذا قفزتُ على عجلة قيادة السيارة وانطلقتُ بها برفقةِ حسن نطوي الطريقَ..

تركتُ حسن في السيارةِ ودخلتُ المستشفى.. شعرتُ بانقباضةٍ في صدري وبيدٍ باردةٍ تعتصرُ قلبي حينما خطوتُ داخلها من جديدٍ..

في الاستقبالِ لمحتُ مُمرضةً منتفخةَ الجفنيْن، تُمسك كوب قهوةٍ وتُشاهد برنامج مسابقاتٍ غنائيةً بكلِّ اهتمامٍ وتركيزٍ.. لم تشعر بي حين اقتربتُ منها.. لم يبدو أنها سمعتني حين ألقيتُ عليها السلام.. رغبتُ في أن أهشِّم التلفازَ فوق رأسِها لولا أن قالت دون أن تنظرَ نحوي:

- أي خدمة يا أستاذ؟

سألتها عن عباس.. أخبرتني بأنه في عنبر العِظام، ثم أشارت للمصعد:

- خد الأسانسير عشان السلالم كثيرة!

- ألف شكر..

رشفتْ من كوبِ القهوة ونظرتْ نحوي أخيرًا:

- فائز إن شاء الله..

قالتها فلم أفهم معناها.. قلتُ مستفسرًا:

- أفندم!

أشارت لشاشة التلفاز حيث شاب يبدو خليجيًّا يتغنَّى بواحدةٍ من روائع أم كلثوم، وقالت:

- صوته حلو قوي..

- آه.. تمام.. تمام.

وتركتها قبل أن تتلقفني في حوارٍ أو ثرثرةٍ لا طائل منها.. ركبتُ المصعدَ متمنيًا أن أجدَ عباس.. كان المصعدُ يُحدث صريرًا حادًّا وهو يصعدُ بي.. لو تعطَّل الآن أو سقط بي فلن أتعجب..

صفارةٌ قصيرةٌ بعدها فُتح باب المصعد وشاهدتُ لافتةً من النيون كُتب عليها باللون الأسود: (عنبر العظام)..

خرجتُ من المصعد وسرتُ في ردهةِ العنبر التي تناثرتْ فيها قطعٌ من مُعدَّاتِ المستشفى..

دخلتُ العنبرَ متخطيًا بابًا كبيرًا من الزجاج الأزرق.. في الداخل كانت الرائحةُ خليطًا من أدويةِ التعقيم والكحول، كذلك تراصَّت سرائرُ المرضى تتخللها أجهزةُ تنفُّس ومساندُ معدنيةٌ، بالإضافة إلى أعمدة جلوكوز طويلةٍ..

لمحتُ شابًّا متوسط العمر، تُحيط الضماداتُ برأسهِ والجبسُ الأبيضُ بساقيْهِ ويديْهِ.. شعرتُ نحوه بالشفقةِ

حين رأيتُ الدموع في عينيْه تسيلُ بصمتٍ، ثم رأيت عباس.

- مجدي باشا!

- عاوزك في موضوع مهم..

كان هذا هو كل الحوار الذي دار بيني وبين عباس في العنبر قبل أن أذهب معه لمكانٍ نستطيع أن نتحدثَ فيه بحريةٍ كما طلبتُ منه في نهاية كلامي.

أخبرته بما أريد.. قال وهو يُحاول تقييمي بنظرةٍ فاحصةٍ:

- طلبك مش عندي!

كنتُ أتوقع ذلك.. لكن عينيْه تفضحان فسادَه.. قلتُ وأنا أبرز له رزمة نقودٍ من فئة الخمسين:

- حتى ولو عشان دول..؟

راح يُحدِّق في المبلغ:

- دول كام؟

- ألفين..

- خليهم ٥!

- ٢ ونص..

- أربعة..

- تلاته..

أرجح رأسَه ببطءٍ، ثم قال:

- اتفقنا يا قائد..

ثم توجَّهنا إلى المشرحة..

أمام بابِها المعدني والذي يشعُّ برودةً توقَّفنا..

ابتسم عباس، ثم أخرج مفتاحًا نحاسيًا أداره في القفل:

- بسم الله الرحمن الرحيم..

وهكذا صرنا في الداخل..

وفي الداخل تراصت مناضد معدنية تعلوها جثثُ الأموات..

خلف المناضد كانت تُوجد ثلاجة حفظ الموتى.. عرفتها بسبب رؤيتها في أكثر من فيلمٍ.. في الواقع كانت أضخم وأكثر رهبةً مما كنتُ أتخيل..

أشعلتُ سيجارةً وأخذتُ منها نفسًا عميقًا، فالتفت نحوي عباس بغضبٍ:

- مش تقول إن معاك سجاير!

ثم ضحك وسحب من علبتي سيجارة لنفسهِ وأشعلها:

- تفتكر الأموات بيتأذوا من ريحة السجاير؟

قالها بسخريةٍ.. تذكرت فيديو تم تداوله على مواقع التواصل الاجتماعي يُظهر أمناء شرطة يعبثون بإحدى الجثث ويضع أحدهم السيجارة في فمها.. أثار هذا الفيديو موجة غضبٍ في نفوسِ المصريين.. فقدسيةُ الموت عندنا ورثناها من أجدادِنا الفراعنة.. قلتُ:

- العلم عند الله..

قلتها فابتسم، ثم فتح الثلاجة وأخرج من داخلها جثةً لامرأةٍ تبدو حديثة الوفاة..

كانت تبدو رقيقةً وملامحُها تحمل كل سلام الدنيا.. قلتُ وأنا أتأمل في الوجه الميت:

- مبلاش دي.. شوف جثة تانية!

- دي جاية في حادثة وأي شيء مفقود منها محدِّش هيدقق فيه، غير كدا لغاية دلوقتي ملقناش ليها

أهل.. يعني دي تاخد منها اللى إنت عاوزه وإنت مطمن.

ثم أخرج مبضعًا من جيبِ معطفهِ، وأكمل:

- طيب وحياة ولادي، الجثة دي لو تقدر تتكلم كانت شكرتني على اللي هعمله دلوقتي..

ثم غرز مبضعه في العين اليمنى فانتزعها تاركًا خلفهَا فجوةً واسعةً مُخيفةً أحالت الوجه الملائكي إلى وجهِ شيطان.. استطرد:

- شايف بقت وحشه إزاي.. كدا تضمن إن مفيش ابن حرام ييجي ينطّ فوقها..

كان معنى كلامه واضحًا جدًّا، لكني قلتُ:

- مش فاهم!

- يغتصبها يعني..

ابتلعتُ ريقي بصعوبةٍ:

- إنت بتتكلم جد؟

تحسَّس صدر الجثة بتلذذٍ، ثم ضحك بسخافةٍ:

- وجد الجد كمان، وحياة أمي في تُربتها.. طيب تحب أحكى ليك عن اللي أفظع من كدا!

أشرت لـه بـأن يصمـت وأن يُكمـل مـا يفعلـه.. لم أعـد أرغـب في سـماع أو معرفـة المزيـد..

اسـتجاب لإشـارتي ووضـع العـين داخـل كيـسٍ شـفافٍ، ثـم عـاد وأخـرج العـين الثانيـة ووضعهـا مثـل الأولى، ثـم ناولهـما لي:

- اتفضل يا سيدي!

تناولتهـما منـه مرتعشًـا.. أخرجـتُ حافظتـي وأعطيتـه مـا اتفقنـا عليـه مـن نقـودٍ.. أحصاهـا في البدايـة بشـكٍّ وحـين تأكـد مـن كـون المبلـغ صحيحًـا، مـال عـلى الجثـة وقبّلهـا مـن فمهـا:

- ألف شكر يا هانم!

ثـم أنهـى جملتـه بضحكـةٍ عاليـةٍ تلقفتهـا في أذني فهرولـتُ مسرعًـا مثـل المجنون.

٤.. ٣.. ٢..

رحـتُ أراقـبُ الأرقـامَ المضيئـة داخـل الأسانسـير وأعـد معهـا الأدوار التـي أهبطهـا.. ضربـاتُ قلبـي كانـت أعـلى مـن

صـوت صفـير فتـح بـاب الأسانسـير حـين خرجـت.. سرتُ في ردهـة الاسـتقبال وقـد وجـدت هـدوءًا عجيبًـا وغـير طبيعـي..

عـلى امتـداد بـصري شـاهدتُ مـكان موظفـة الاسـتقبال خاويًـا، بينـما التلفـاز مـا زال يعـرضُ برنامـج المسـابقات السـخيف..

ألقيـت ذلـك خلـف ظهـري وتوجهـت للخـروج.. فجـأة أوصـد البـاب أمامـي بعنـفٍ.. ارتعشـت الأضـواءُ للحظـاتٍ ثـم انطفـأت.. غرقـتُ في ظـلامٍ لا يُـدده غـير ضـوءٍ شـاحبٍ تسـلل مـن تحـت عقـب البـاب.. مـن جديـدٍ سـمعتُ صـوتَ التلفـاز الـذي أضيئـت شاشـتُه وامتـلأ بخطـوطٍ بيضـاء غـير واضحـةٍ.. راحـت حركـةُ الخطـوط تنتظـمُ ثـم تظهـرُ صـورةً مشوشـةً.. اقتربـتُ مـن التلفـاز بحـذرٍ.. شـاهدتُ نفـسي عـلى شاشـته برفقـة عبـاس وأمامنـا جثـة الفتـاة.. عبـاس ينتـزع العينـيْن بينـما أنـا أقـفُ متوتـرًا.. كان الأمـر أشـبه بمثابـةِ تسـجيل كامـيرا مراقبـة.. أي لعنـة أو أي سـحرٍ شـيطاني يجـري أمامـي.. ثـم حـدث مـا لم أتخيلـه أو مـا لم يحـدث في الحقيقـة.. شـاهدتُ نفـسي وأنـا أجثـمُ فـوق الجثـة ثـم أمـارسُ معهـا الجنـسَ القـاسي وسـط ضحـكاتِ عبـاس المجنونـة التـي راح صداهـا يـترددُ بـلا انقطـاعٍ، ثـم اتسـعت مـن حـولي وابتلعتنـي داخلهـا..

التفتُّ خلفي لأجدَ ظل موظفة الاستقبال يدنو مني ببطءٍ.. حركتها كانت آليةً ومرعبةً.. أضأتُ نور كشّاف هاتفي في وجهِها.. عينان من الجحيم هما ما ظهرا.. قبل أن تُدركني هرولتُ باتجاه باب الخروج.. لا أعرفُ كيف صرتُ بالخارج.. فقط ألقيتُ نفسي بجوار حسن وأنا ألهثُ.. كان الرعبُ يغمرني وكنتُ غير قادرٍ على الحديث.. سألني عن سبب تأخيري وعما حدث حين أدرتُ مُحرك السيارة وانطلقتُ بها وسط الشوارع في الليل المظلم.. لم أجبْه واكتفيتُ بمحاولةِ التقاط أنفاسي ثم رفعتُ الكيسَ الشفافَ وما يحويه من عينيْن تسبحان في الدماء.. الغريبُ أنه ولأول مرةٍ ألاحظ أن العينيْن كانتا.. (زرقاويْن).

زرقاء..

زرقاء هي السماء وأمواجُ البحر التي تتكسَّر على صخور شاطئ إسكندرية حين سرتُ بجوار ولاء وأنا أحيطُ خصْرَها بذراعي، بينما هي ترنو برأسِها على كتفي..

إنها ليلةُ عيد الربيع منذ عامٍ مضى، وصوتُ سعاد حسني والدنيا ربيع والجو بديع يُعطر الحياة مثلما تُعطرها الأزهارُ والورودُ الموسمية..

أطلقت ولاء ضحكةً ماجنةً أسكرتها زجاجةُ خمرٍ ثم قبَّلتني على خدِّي دون أن تهتم بنظراتِ البشر الذين يجلسون على كراسي ممشى البحر.

- عليَّا النعمة إنتي مجنونة..

- دلعني!

قالتها وهي تحتضنني وتُحاول أن تُقبلني من جديدٍ.. أبعدتُ وجهي عنها.. زوتْ ما بين حاجبيْها بغضبٍ مصطنعٍ:

- في البيت يا حبي..

أدارت رأسَها:

- أنا عطشانة..

ثم ناولتني زجاجة البيرة الخضراء.. كانت فارغةً.. لم تترك فيها قطرةً واحدةً.. لهذا فعلت الشيء الطبيعي وألقيتها بعيدًا على قارعة الطريق فتهشمت إلى شظايا دهسَتها السياراتُ التي تأتي من خلفي مُسرعةً مع سبابٍ من بعض السائقين.. ضحكنا حتى كِدنا نسقطُ على وجهيْنا:

- لسه عطشانة..

أشرت إلى الناحيـة الأخـرى مـن حيـث نقـفُ.. إلى ملهـى ليـلي زُيِّنـت واجهتُـه بالأشـجار والأنـوار المضيئـةِ مـع لافتـةٍ عملاقـةٍ لراقصـةٍ بيضـاء مثـل المهلبيـة وخلفهـا مطـربٌ شـعبي يُشـبه جعرانًـا فرعونيًّـا تـم تحنيطُـه..

أمسـكتُ يدَهـا وعبَرنـا إليـه.. أشرتُ بالتحيـة إلى البـودي جـارد الـذي يقـفُ عـلى المدخـلِ ويـشربُ مـن علبـة بـيرة.. فتـح لنـا البـابَ بصمـتٍ وفي أدبٍ جـمٍّ.

في الداخـلِ شـعرتُ بالرضـا عـلى حُسـن اختيـاري لهـذا المـكان.. كان ملهـى ليليًّـا داعـرًا كـما يجـب أن يكـون.. يُمكننـي أن أضاجـعَ ولاء فـوق المائـدة التـي نجلـسُ عليهـا دون أن ينظـرَ إلينـا أحـدٌ بوقاحـةٍ أو يسـألنا عـما نفعـل.

أتـت إلينـا نادلـةٌ نصـف عاريـةٍ في العشرينيات مـن عمرِهـا ووضعـت قائمـة الطعـام مـع ابتسـامةٍ سـاحرةٍ مُصطنعةٍ:

- نوَّرتي يا هانم.. نوَّرت يا باشا!

ثـم أخرجـت ورقـةً لتُـدون فيهـا طلباتنـا.. وأيضًـا طلبـتْ زجاجتـيْ بـيرة كفاتـح شـهيةٍ قبـل الطعـام..

لكزتنـي ولاء في قدمـي حـين لمحتنـي أتفحَّـصُ مؤخـرةَ النادلـة ذات الحجـم العائـلي..

بعـد أن انتهينـا مـن قضـاء السـهرة وكنَّـا عـلى وشـك المغـادرةِ قالـت النادلـةُ حـين لمحـتْ رزمـة النقـود التـي أخرجتهـا:

- ليك في اللعب يا باشا؟

وقبـل أن يذهـب تفكـيري إلى اللعـب في المناطـق القـذرة اسـتدركتْ بسرعـةٍ:

- فيه لعبة بوكر شغالة..

وأشـارت إلى ممـرٍّ يقـفُ عليـه بـودي جـارد قصـيرُ القامـة قبيـح الملامـح:

- هناك..

ملتُ على ولاء:

- إيه رأيك؟

لثانية أو ثانيتين ترددت:

- وما له.. خلينا ننبسط!

- معاكي فلوس؟

- حاجة بسيطة..

- حلو قوي..

نهضتُ بصعوبةٍ من على المقعد بفعلِ كثرة ما أكلته وشربته.. عبرت من أمام الحارس.. قلتُ مازحًا:

- هناك..

أومأ برأسهِ وهو يُشير نحو بابٍ سميكٍ:

- هناك..

ثم طرق البابَ ثلاث طرقات سريعةٍ.. فتحت الباب الراقصةُ المهلبيةُ الموضوعةُ صورتها في الخارج:

- قشدة..

قلتها داخل نفسي.. لو سمعتني ولاء لذبحتني.. حيَّتنا الراقصةُ بابتسامةٍ واسعةٍ وأشارت إلينا بالدخول.. كانت الغرفةُ واسعةً، في آخرها يُوجد بارٌ صغيرٌ خلفه بارمان عجوز مُنشغل في صبِّ كأسيْ شمبانيا.. تتوسط الغرفة منضدة تناثرت فوقها أوراقُ اللعب، وقد التفَّ حولها ثلاثة رجال متجهمو الملامح..

اتخذتُ مكاني بعد أن حييت اللاعبين.. لم تفُتني نظرة رجلٍ ممصوص الجسد يُشبه الثعبان، ويرتدي عويناتٍ عتيقةً لا تتناسبُ مع بدلته الحديثةِ باهظة الثمن.. خلط الأوراقَ بخبرةٍ.. ناولني ورقتيْن.. من خلفي تقفُ ولاء

وتتابعُ باهتمامٍ.. في مواجهتي تقفُ الراقصة خلف صاحب العوينات..

نظرتُ في الورقتين.. ولد مع آس.. ٢١..

غطيتهما ثم زدتُ الرهان.. دقيقة واحدة وكنتُ فائزًا بالدور الأول.. أعلم أنه من المُبكر الاحتفال بالمكسبِ، لكنني لم أستطع مقاومةَ ضحكةٍ خرجتْ مني ساخرةً..

ابتسم الثعبانُ في تحدٍّ مباشرٍ لي..

أكملنا اللعب..

بعد ساعةٍ كاملةٍ كنتُ قد خسرتُ كل أموالي..

مسحتُ العَرق من على جبيني، بينما نظر إليَّ الثعبانُ وقال ببرودٍ:

- هارد لك!

ثم أشعل سيجارةً، سحب منها نفسًا عميقًا..

- يلا بينا يا مجدي كفاية لعب!

قالتها ولاء وهي تجذبُني للخروج.. ابتسم الثعبانُ وهو يتفحَّصُ جسدَها في وقاحةٍ.

- لا..

قلتُهـا بتحـدٍّ وأنـا أسـحبُ نفـسي منهـا.. خلعـتُ سـترتي ورميتُها جانبًـا.. فتحـتُ حقيبـة ولاء عـلى الرغـم مـن ممانعتِها الشـديدة، وألقيـتُ كلَّ مـا وجدتُـه في حقيبتها عـلى المنضـدة..

- العب!

رمــي لي ورقتــيْن.. تناولتهــما بأصابــع مرتعشــةٍ.. ٧ و٩.. المجمــوع ١٦.. أقــترب مــن الرقــم الرابــح ٢١..

كشـف الثعبـانُ إحـدى ورقتيْـه.. ١٠.. لـو كان يُخفـي ٧ فهـو رابـحٌ.. ابتسـم ابتسـامة ظفـر وعـاد للـوراء بظهـرِه..

- كارت..

قلتها بحـدةٍ.. ناولنـي كارتًـا ثـم خلـع عويناتـه ووضعهـا بجانـبِ ورقـه.. قـال:

- البوكر مش بس لعب ورق..

كشـفتُ طـرفَ ورقتــي الثالثــة.. ٦.. المجمــوع ٢٢.. لقــد خــسرتَ..

أكمل:

- البوكر لعب بعقل اللي قدَّامك..

ثـم كشـف ورقتـه الثانيـة ولمعـت عينـاه.. ٣.. لقـد كنـتُ فائـزًا مـن البدايـة لكنـه خدعنـي.. ملـتُ بجسـدي ناحيتـه.. أوشـكت أن ألكمـه في وجهـهِ.. منعتنـي ولاء:

- كفاية بقى يا مجدي!

- اسمع كلام الهانم.. يا مجدي!

قالهـا بتهكـمٍ واضـحٍ.. كانـت هـذه هـي الكلمـة الأخـيرة التــي ينطقهــا قبــل أن أطــوح قبضتــي في وجهــهِ.. بعدهــا مـرَّت أمامـي المشـاهد متقطعـةً سريعـةً.. ولاء تـصرخُ.. تهشـم زجاجــة فــوق رأسي.. دمــاء دافئــة وقبضتــي تهشــمُ أنــف الثعبـان.. أذرع حديديـة تُحيـط بخـصري.. إلقـائي في الشـارع وقـد تمزَّقـت ملابـسي.. النهايـة كنـتُ أقـودُ سـيارتي برُفقـة ولاء والدمـاء تغـرقُ رأسي:

- سوق على مهلك!

لم أكـن أرى مـا أمامـي وأنـا أخـترقُ الطريـقَ بسرعـةٍ بالغـةٍ وقـد أعـماني الغضـبُ وظـلامُ الليـل.

- متخافيش..

قلتُهـا دون أن أنظـرَ إليهـا.. فقـط أنـا أرى الطريـقَ يتمـوَّج مثـل البحـر، بينـما رأسي يطفـو فـوق وسـادةٍ مُريحـةٍ..

ألمحُ لافتةً مُضيئةً لمجمعِ مواقف الإسكندرية..

فجأةً.. ولاء تصرخُ. فجأة.. طفلة صغيرة تعبرُ الطريق..

حاولـتُ أن أتجنبهـا لكـن عقـلي وحـواسي كانـا أبطـأ وأكسـل مـما يُفـترض.. أرى الطفلـة ترفـع يدَهـا أمـام وجههـا ذعـرًا وخوفًـا.. لم أسـمع لهـا صراخًـا.. كل شيء صـار مُعتـمًا لوهلـةٍ.. ربمـا توقَّـف الزمـنُ أو توقَّفـت كلُّ حـواسي.. عـادت الأحـداثُ تتحـرك بسرعـة الصـاروخ مـع صرخـةٍ أخـرى مـن ولاء.. الزجـاج ينفجـرُ في وجهـي مثـل قنبلـةٍ مدويـةٍ وجسـد الطفلـة يسـتقر فـوق مقدمـة السـيارة.. دهسـتُ عـلى الفرامـل حتـى كادت قدمـي تخـترقُ الدَّواسـة.. توقفـت السـيارة بغتـةً.. كنتيجـةٍ لـرد الفعـل، جسـد الطفلـة ينزلـقُ ثـم يطـيرُ في الهـواء قبـل أن يسـتقرَّ بجـوار حافَّـة الترعـة..

أطفـأتُ مُحـرِّك السـيارة وأنـا ألهـثُ.. هبَّـت الرياحُ بقسـوةٍ وعربـدت بـين شـظايا الزجـاج المكسـور فأصـدرت صفـيرًا غريبًـا.. هرعـت مهشـم الأعصـاب ناحيـة الفتـاة.. كانـت تـئنُّ مـن الألم.. قبـل أن أقـتربَ منهـا تحركـت فانزلقـت في الترعـة وهـوت كجلمـودٍ حجـري.. ألقيـتُ نفسي خلفهـا بـلا تفكـيرٍ وغصـتُ مثـل المجنـون.. كانـت الميـاه قـد ابتلعـت الفتـاة وطوتهـا سريعًـا داخـل أمواجهـا.. في الأسـفل، كـدت أن أختنـقَ وضاعـت أنفـاسي حتـى ظننـت أننـي سـأموت.. لكنـي عـثرتُ عـلى الفتـاة وهـى ترتكـزُ في القـاع.. حملتهـا إلى السـطح.. بـين

يـديَّ وخلـف القمـر الدمـوي كانـت قـد فارقـت الحيـاة وعـلى وجههـا الـبريء حـسرةُ المـوت.. أغمضـتُ عينيْهـا الزرقاويْـن بيـدي محـاولًا أن أخفـي نفـسي منهـا.. رأيـتُ حـول عنقهـا سلسـلةً تعليقتهـا عـلى هيئـة ميـزان.. ربمـا كان هـذا هـو ميـزان العدالـة.. لكـن العدالـة كانـت قـد غابـت عـن الأرض في تلـك السـاعة.. تركتهـا مـن يـدي فعامـت فـوق سـطح المـاء حتـى ظننـت أنهـا سـتطفو إلى الأبـد.. لحظـاتٌ وكانـت تغـوصُ بسلاسـةٍ وراء انعـكاس.. (ضـوء القمـر).

ضوءُ القمرِ..

كان حـاضرًا حـين وصلـتُ أنـا وحسـن إلى الممـرِّ الـذي يقـودُ إلى التـل الأحمـر.. أخفيـتُ السـيارة وراء تبَّـةٍ عاليـةٍ فبـدت مثـل جثـة حيـوانٍ ميِّـتٍ.. شرعنـا في صعودِنـا دون أن نتلـكأ دقيقـةً واحـدةً.. حملـت أكيـاس الـدم والقَـرن والعينـيْن.. حسـن كان مُتجهـمًا طـوال الطريـق.. ربمـا لأنـه يعـرفُ تحديـدًا مـا ينتظرُنـا.. قلـتُ:

- أنا عاوز أشكرك قبل كل حاجة..

- ده جميلك وأنا بحاول أرده ليك.

دام صعودُنا للتل نصف ساعة حتى وصلنا برهوت.. كانت منطقة أشد وحشةً مما ظننتُ أو تخيَّلتُ.. عبارةً عن قبرٍ قديمٍ كادت تبتلعُه الرمالُ فلم يبقْ منه غير جزءٍ صغيرٍ.. بجواره أشجارُ صبَّار ترتفعُ مثل الأشباح وتُوحي بالموت..

تقدَّم حسن من المقبرة وصار يدورُ مِن حولها وهو يتفحَّصها باهتمامٍ.. لمَّا انتهى، تناول جاروفًا وناولني آخر ورُحنا نحفرُ حول المقبرة حتى ظهر بابُها المصنوعُ من الحجر الأسود المخلوط بالجبس، ثم شرعنا في تحطيمهِ باستخدامِ المدقَّات.. بعد أن انتهينا سألتُه:

- هنزل دلوقتي؟

أجاب وهو يلهثُ:

- لسَّه.. فيه طقوس لازم نعملها الأول..

ثم تناول كتاب شمس المعارف وتخيَّر منه صفحةً معينةً وراح يقرأ منها بصوتٍ مرتفعٍ:

- يا مذهب بحق الملك الغالب أمره عليك، وأنت يا أبيض بحق الملك الغالب أمره عليك، وأنت يا أحمر بحق الملك الغالب أمره عليك، وأنت يا برقان بحق الملك الغالب أمره عليك، وأنت يا شمهروش بحق

الملك الغالب أمره عليك، وأنت ميمون بحق الله عليك الغالب أمره عليك.. أجيبوا.. أجيبوا!

أجفلتُ في مكاني حين سمعتُ وقْع حوافر وصليل سلاسل حديدية يأتي من ورائي ويُمزق صمتَ الليل المُوحش.. التفتُّ بسرعةٍ فشاهدتُ بغلةً تبدو مضيئةً بفعل الشرر الذي راح يتطايرُ من عينيْها، وقد حملتْ سلاسل حديديةً حول رقبتِها الطويلة..

كانت البغلةُ تنظرُ لي فيما يُشبه الفهمَ لِمَا نفعل.. راحت تدورُ من حولنا ببطءٍ وتُصدر أصواتًا مُخيفةً من حنجرتها.. مدَّ حسن يدَه وأوقفني في مكاني وهو يقول:

- متبصّش ليها.. دي عروسة القبور.. لو خدتك هتطير بيك وتدفنك وإنت حي..

ولأول مرةٍ ألاحظ أني كنتُ أقتربُ منها دون أن أشعرَ.. عدتُ للخلفِ عدة خطواتٍ، وأشحتُ وجهي عنها محاولًا أن أمحوها من عقلي.. حين التفتُّ إليها مرةً أخرى كانت قد اختفتْ تمامًا دون حتى أن تتركَ أثرًا لحوافِرها على الرمال..

ألبسني حسن قميصًا طويلًا مصنوعًا من الكِتَّان وقد كتب فوقه حروفًا وأرقامًا.. أخبرني أن القميص،

للحماية من أذى الجن، غزلَته غجريةٌ من بناتِ الريح بيدِها اليُسرى وقد دقَّت فوقه عزيمةً بحروفٍ ناريةٍ.. في الحقيقة لم أستوعب معظم ما قال.. فقط كل ما يعنيني أنه سيحميني من الجن.. دقيقة واحدة.. لماذا تم غزلُ القميص باليد اليسرى.. ابتسم حسن ولم يُجبني، ثم أشار لي بأن أنزل إلى المقبرة.. لم أكن أظن يومًا أني سأنزلُ إلى مقبرةٍ وأنا على قيد الحياة.. المفترضُ أن أنزلها وأنا ميِّت..

ناولني مصباحًا صغيرًا وطلب مني ألا ألتفت إلى أي شيء يظهرُ لي ثم تمنى لي التوفيق.. تمنَّيتُ أن يأكله شيطان فابتسم ابتسامةً شاحبةً.

الفَصْلُ الثَّانِي عَشَر

عبرتُ باب المقبرة ودخلتُ..

كان هناك صمتٌ مُطبقٌ ورهبةٌ مُوحشةٌ.. راح نورُ الكشَّافِ يرتعشُ.. رأيتُ ظلالًا تتراقصُ مِن حولي.. التفتُّ للوراء.. رأيتُ القمر يبتعدُ ويغيبُ.. بدا لي أن هناك ظلًّا ضخمًا أغلق البوابة.. سيطرت عليَّ فكرةٌ مزعجةٌ أن حسن أغلق عليَّ باب القبر ورحل.. ناديتُ:

ـ حسن!

تردَّد صدى ندائي عشراتِ المرَّات.. حاولتُ أن أستبعدَ الخيالاتِ والأوهامَ من عقلي.. حرَّكتُ مصباحي.. لمحتُ صخرةً صامدةً في الركن الأيسر.. حين اقتربت منها انطفأ المصباح.. انطبقت عليَّ الظلمةُ وابتلعتني داخلها..

أحسستُ بصعوبةٍ في التنفس وكان الظلامُ يخنقني.. جاهدتُ هذا الإحساسَ.. سمعتُ ضحكةً خبيثةً.. شعرتُ بشيء يدفعُني إلى السقوط.. ثبَّت قدميَّ ثم ضربتُ بقبضتي المصباح عدة مراتٍ حتى كدت أهشِّمه لولا أن عاد للعمل من جديدٍ..

الصخرةُ أراها في الركن الأيمن.. هل قلتُ من قبل إنها في الأيسر.. لا أتذكر.. لا بد أنني أخطأت.. هل ذكرت أيضًا أن هناك امرأةً تجلسُ فوقها.. نعم هناك امرأةٌ وجهُها مقلوبٌ تجلسُ صامتةً صمت الموت وتنظرُ لي..

أغمضتُ عينيَّ وفتحتهما.. لم تعد المرأةُ موجودةً.. انطفأ المصباحُ من جديدٍ، وقبل أن أحاول إعادته للعمل سحبته قوةٌ خفيَّةٌ من يدي وطوَّحت به بعيدًا.. احتفظتُ بمكانه في ذاكرتي، ثم خطوتُ إلى الأمام بحذرٍ.. مددتُ يدي ورحتُ أحركهما في كلِّ اتجاهٍ.. عيناي جاحظتان أبحثُ عن لمحة ضوء..

سرتُ عدة خطواتٍ.. تعثرتُ.. سقطتُ.. نهضتُ.. وأخيرًا شعرتُ بالمصباحِ أسفل قدمي.. أشعلته من جديدٍ.. بسرعةٍ رسمتُ على الأرض دائرةً كبيرةً تتوسطها نجمةٌ خماسيةٌ ثم حددتها بالدماء التي شربتها الأرض في ظمأ حقيقي..

كتبتُ داخل زوايا النجمة أسماء ملوك الجان: (طيكل، دمليخ، ميمون، لياشلش، طهيوج)، ثم وقفتُ وسط الدائرة..

سكبتُ فوق وجهي ما تبقى من دماء، ثم وضعتُ عينيْ الميتة فوق عينيَّ.. للحظةٍ ومض بريقٌ داخل مقلتيَّ، ثم سرق بصري وعميتُ.. تلفَّت حول نفسي محسورًا وقد شج صدري بسيفٍ باردٍ من الذعر.. صرختُ وسط الظلام المُوحش المُحيط بي:

- حسن..!!

بعدها سمعتُ ضحكةً عاليةً، ثم انكشفت الرؤيةُ فجأةً أمامي فصرتُ مُبصرًا في مملكة الجن.

وجدتُ نفسي داخل ما يُشبه قاعة كهفٍ صخري تصطبغُ بنورٍ أحمر باهتٍ لا أعرفُ مِن أين يأتي مصدرُه.. على مقربةٍ مني شاهدتُ الجن يرتعُ في مجونٍ.. مخلوقاتٌ مُرعبةٌ تحملُ سمات عالم الأساطير واللا حقيقة.. لهم أرجلُ ماعز وأذرعٌ طويلةٌ كالعصيان تنتهي بثلاثة أصابع.. رأيتُ حفنةً منهم يحملون امرأةً عاريةً يُغطيها شعرٌ كالحرير وتحملُ صدرًا كبيرًا مثل حبتيْ أناناس.. كانت

المرأةُ تبدو كالمسحورةِ تستجيبُ لهم كالعجينِ في يد خبَّازٍ يُجيدُ الصَّنعة.. تتأوَّه بين الحين والآخر وتُخرج شهقاتٍ مكتومةً متلذذةً.. جسدُها الشهيُّ كاد يختفي تحت رماح أجسادهم حين راحوا جميعًا يُضاجعونها في كل فتحاتِ جسدها قبل أن يسحبوهَا معهم تحت الأرضِ وسط صياحٍ لا ينتهي.

رأيتُ حيةً عملاقةً تخرجُ من تحت الأرضِ.. تشكَّلت سريعًا واستحالت إلى كائنٍ آخر من الأبالسة، سرعان ما دخلتْ في شجارٍ مع جنٍّ يحملُ رأس كلبٍ.. كان السببُ تميمةً أخرجتها الحيةُ من فم ميتٍ سُلِخَ رأسُه وفُقئتْ عيناه.

لو كان هناك بديلٌ للجحيم لكان هو هذا المكان.. أمعنتُ النظرَ حولي في كلِّ ما حوالي فلم أجد غير قبحٍ وبشاعةٍ..

سرتُ مُتلمسًا النجاةَ والخروجَ.. سمعتُ صرخةً عاليةً فيها تعاسةٌ لا تنتهي وتأتي من ممرٍّ طويلٍ مُظلمٍ..

مشيتُ باتجاه الممرِّ.. على مدخل الممرِّ وُضعت بوابةٌ من حديدٍ نُقش فوقها رسمٌ مُفزعٌ لرجالٍ ونساء عراةٍ أجسادُهم ملتويةٌ يرفعون أيديهم لأعلى طلبًا للرحمةِ بينما يحترقون في أتون مُلتهبٍ.. كانت البوابةُ مُوصدةً..

مددتُ يدي محاولًا فتحَها.. اشتعلت فيها النارُ فجأةً فكادت تلتهمني لولا أن تراجعتُ للوراء سريعًا..

سمعتُ صرخةً مُخيفةً اهتزَّت لها أرجاء العالم السفلي وسمعها كل الأموات.. ثوانٍ.. ثم فُتحت البوابةُ بفعل قوةٍ خفيَّةٍ ورأيتُ المخلوقَ الأبشع والأفظع، وحول عنقه كان يلتفُّ شجاعٌ أقرع..(ثعبان).

ثعبان..

اصطدمتُ به أمام الكاشير في محلٍّ للوجباتِ السريعةِ بعدما كنت انتهيتُ من دفن والد حسن.. كان قد أطلق لحيته وأطال شَعر رأسهِ فبدا مثل أحد كُفار الجاهلية كما تُصورهم الأفلام.. ابتسم في وجهي وكأنه عثر على فريسةٍ:

- يا جمال الفرص السعيدة!

أجبتُه باقتضابٍ شديدٍ مُحاولًا إنهاء هذا الحديث السَّمج، لكنه استوقفني من جديدٍ:

- مرجعتش تلعب تاني ليه!

قلتُ بهدوءٍ وأنا أتناول من الكاشير فاتورة الحساب:

- مفيش.. بطَّلت..

قال بلهجةٍ فظَّةٍ:

- ولَّا فلِّست؟

ثم سحب مني الفاتورةَ وألقى على محتواها نظرةً سريعةً، بعدها استطرد وهو يُخرج محفظته المُتخمة:

- اسمح لي أدفعلك!

احمرَّ وجهي حين ناول الكاشير النقودَ دون أن ينتظرَ ردِّي.. أوشكتُ أن أسبه وألعنه لكني أمسكتُ أعصابي عند الحدِّ الأخير ورسمتُ على وجهي قناع (أنْ لا بأس).. طلب مني بعد ذلك أن آتي معه للعب.. أخبرني أن اللعبة ستقتصرُ على كليْنا.. لم أكن أرغب.. كنتُ قد عاهدتُ نفسي ألا أقربَ اللعب أو الشرب بعد الحادثة.. لكن رغبتي في الانتقام منه بسببِ إذلالي جعلتني أوافقُ على مضضٍ..

داخل منزلهِ جلسنا حول مائدةِ اللعب.. كان الثعبانُ قد أعدَّ غرفةً تُشبه الموجودة في كازينوهات القمار..

سألته وأنا أحصي أوراقي:

- إنت بتشتغل إيه؟

أجاب إجابةً مُبهمةً مفادُها أنه يعمل كل وأي شيء.. سألني:

- الهانم اللي كانت معاك، مراتك؟

قلتُ بتلقائيةٍ:

- لا.. دي صاحبتي.

أدركتُ الآن زلة لساني.. أدركتُ كذلك مدى بشاعة ابتسامته الصفراء التي رسمها الآن.. قال:

- بتحبها؟

- مش عارف..

- علاقتك بيها قديمة..؟

قلتُ:

- خلينا في اللعب و..

قاطعني وهو يضحكُ ضحكةً ماكرةً:

- إيه رأيك نلعب عليها؟

لم أفهم لوهلةٍ ماذا يعني أو مَن يقصد:

- نلعب على مين؟

ابتسم وهو يعضُّ على شفتهِ السفلى:

- على الهانم اللي كانت معاك.. لو إنت كسبت حلال عليك الفلوس.. لو أنا كسبت تتصل عليها تيجي تنام معايا الليلة دي..

ثم توجَّه إلى بارٍ صغيرٍ أحضر زجاجة خمرٍ وكأسين.. صبَّ لي كأسًا ودفعها باتجاهي وهو يبتسمُ:

- اشرب!

تجاهلتُ الكأس، بينما صبَّ لنفسهِ كأسًا رفعها بامتداد ذراعه في وجهي وقال:

- في صحتك!

راقبته وهو يجترعُ الخمرَ على مهلٍ.. قلتُ:

- أوعدك لو فلوسي خلصت هنلعب عليها.. ردَّ وهو يُفند الورق بحماسةٍ:

- يبقى هتخلص!

ثم أكملنا اللعب.. بعد ساعةٍ كنتُ قد خسرت.. أقصدُ ربحت كل أمواله..

نظر نحوي وأنا أجمع النقود وأحشرها في جيوبي.. تجرَّع كأسًا جديدةً وقد احمرَّ وجهُه.. ابتسم نصف ابتسامةٍ، ثم قال:

- لعبتها صح المرة دي..

نهضتُ وأنا أرميه بنظرة استهزاء:

- تعيش وتاخد غيرها..

ثم استطردتُ قبل أن أنهض:

- تحبّ تكمّل!

أراح رأسَه للوراء ثم أغمض عينيْهِ وأشار لي بأن أغادر..

لم أكد أسيرُ بضع خطوات حتى سمعتُ صوتًا مسعورًا يدوي في عقلي: (انظر خلفك).. التفتُّ وإذا بالرجلِ الثعبان كان يتسللُ من ورائي وهو يحملُ سكينًا.. ودون أن يُعطيني فرصةً للحركةِ انقضَّ يطعنني في مكان القلب.. رفعتُ يدي بتلقائيةٍ.. السكين جرحت يدي وانحرفت.. صرخ مثل المجذوب، بينما أمسكتُ ذراعه الممسكة بالسكين.. تطوَّحنا معًا في قتال حياة أو موت.. اصطدمنا بمائدةِ اللعب فتهشمتْ بدويٍّ مزعجٍ وسقطنا على الأرض، ثم سكن كلُّ شيء بغتةً..

رأيتُ السكين داخل عنقه حتى مقبضها..

نظر لي محسورًا.. عيناه تتسعان.. فتح فمه.. حاول أن يصرخَ.. لم يخرج من حنجرته غير حشرجةٍ مكتومةٍ.. طوَّح بيده في الهواء باتجاهي.. تراجعتُ للوراء أتابعه في ذعرٍ..

نهض من على الأرض مترنحًا دون أن يُحاول انتزاع السكين من عنقه.. مدَّ يده وأمسك زجاجة خمر ثم سار باتجاه كنبة كبيرةٍ وارتمى فوقها.. رفع الزجاجة على فمه ثم نهل حتى أنهى ربعها.. نظر لي من جديدٍ.. رفع الزجاجة نحوي وكأنه يدعوني لمشاركته الشراب.. صدر منه خوارٌ مخيفٌ ثم سقطت الزجاجة من يده ومات.

اقتربتُ منه بعد قليلٍ.. كانت عيناه لا تزالان مفتوحتيْن.. فكُّه العُلوي ابتعد عن فكه السفلي فبدا مبتسمًا ابتسامته الكريهة.. انقضت بعد ذلك ساعةٌ كاملةٌ أنظر إلى جثته ولا أعرفُ كيف أتصرَّف.. لم أعتقد يومًا أنني قد أفعل شيئًا بمثلِ تلك القذارة ..

انتزعتُ السكين من عنقهِ.. اضطررتُ أن أستخدم كلتا يديَّ في ذلك.. لم أكن أعلمُ أن طعنتي كانت بمثل تلك القوة..

حملتُه وتوجهتُ إلى المطبخ.. فتحت الديب فريزر وأخرجتُ كل ما به من أطعمةٍ محفوظةٍ.. حاولتُ وضع الجثة في الداخل لكنها كانت قد تخشَّبت.. لم تعد لينةً بطريقةٍ تكفي لحشرها.. أحتاجُ إلى أن أقسمُها إلى نصفيْن.. مجرد التفكير في ذلك جعل معدتي تتحركُ.. جرَّبت أن أكسر ساقه.. ظهره.. اللعنة.. اللعنة.

بحثتُ عن ساطورٍ حتى وجدته.. فردتُ الجثة على الأرض.. بدأتُ بقطع اللحم ثم نشر العظام.. فاحت رائحةٌ كريهةٌ حين ثقبتُ الأمعاء الغليظة بالخطأ، حين انتهيت كنتُ أجلسُ بين شطريْ الجثة وحولي بركةٌ من الدماء الحمراء..

حاولتُ أن أنهض فشعرت بألمٍ في ذراعي.. تذكرتُ الآن أنني قد جُرحت.. دمائي تختلطُ بدماء الجثة التي لمحتُ فيها انعكاسًا مشوهًا لصورة وجهي الذي كاد يكون وجه.. (مسخ).

مسخ..

ذلك هو ما رأيته وراء بوابة الجن..

المخلوقُ المُخيفُ الذي خرج من غضبِ الرب ويُشبه التيس، وإن كان أكثر قبحًا وبشاعةً.. سوميا.. كان يجلسُ فوق عرشٍ عالٍ من الصخر الصُّلب الأحمر، وقد زيَّنته جماجم ورؤوس بشرية تصرخُ.. على جانبيْ عرشهِ اصطفَّت مجموعةٌ من البشر في أيديهم مباخر نحاسية يتصاعد منها دخانٌ كثيفٌ، ويرددون أدعيةً غريبةً.. كانوا جميعًا عرايا امتلأت أجسادُهم بوشومٍ شيطانيةٍ وبنديات صغيرة لا أعلم سببًا لها غير أنها قد تكون تقربًا لهذا البشع..

خرجتْ من وسط الصف، امرأةٌ فاحشة الجسد، تضع غطاء شفافًا على وجهها بينما شَعرُها ينسدلُ خلف ظهرها ويُلامس أطراف مؤخرتها التي اهتزَّت في ليونةٍ مطلقةٍ.. مشت نحو سوميا بكبرياء شيطاني حتى أصبحت بين ساقيْهِ.. أحنت رأسَها وقالت بخنوعٍ:

- سيدي.. إلهي المُبجل.. باركني!

ردَّد الجميعُ خلفها في آنٍ واحدٍ وبصوتٍ جَهْوَرِيٍّ:

- ليتبارك اسمك يا إلهنا!

ثم كشفتْ عن وجهها.. ضربني زلزلٌ وهوى قلبي من فوق سفح جبلٍ شاهقٍ.. كانت هويدا.. المرأة التي ضاجعتُها في غرفةِ مأمور السجن.. ثوانٍ ثم انحنت على ركبتيْها وقبَّلت قدم سوميا.

رغمًا عني وصلت الأبخرةُ إلى أنفي.. تسللتْ إلى عقلي ومنه تغلغلتْ داخل روحي.. مثل مسلوب الإرادة وجدتُ نفسي أنضم إلى صفِّ الواقفين في انتظار دوري من أجل تقبيل البشع..

لم أعد أذكر ما الذي أتى بي إلى هنا.. أو حتى كيف جئت.. أنا فقط شعرت بظمأ وبنارٍ في فمي لا أقدر

على احتمالهما.. تلك اللحظة التي أعيشها تلغي كل ما قبلها.. أي روعة وأي جنة صرتُ فيهما.. توسَّلت للشاب الذي يقف أمامي أن أسبقه.. التفت لي بعينيْن خاليتيْن من التعبير.. التفَّت من حولي امرأتان يسيلُ العَرق بين فخذيْهما وتطلبان مني أن أمتزجَ بجسديْهما.. أزحتهما عني وتركتهما مع الشاب يُمارسون كل أنواع الخطيئة..

وصلتُ لسوميا..

نزلتُ على ركبتيَّ ودنوتُ مما بين ساقيْهِ.. نكزني قرنُ الشيطان الذي أخفيهِ في جانبي.. استفقتُ من غيبوبتي فجأةً وارتعدتْ فرائصي.. رفعتُ وجهي باتجاه سوميا الذي نفث سمومَه ناحيتي فأغشى عينيَّ للحظةٍ، لكنني ميَّزت الآن أن لديه قرنًا وحيدًا.. قرنًا يُشبه الذي معي.. أيُعقلُ أنني أحمل قرنَه الثاني بين يديَّ.. رُبما.. رُبما لا.. ثم وبكلِّ قوتي طعنته بالقرنِ.

يتهاوى سوميا..

يهتزُّ لبرهةٍ.. يرتعشُ.. ثم يسقطُ فوق عرشهِ..

نظرتُ إلى يدي ورفعتُ القرن عاليًا غير مُصدِّق أنني نجحتُ..

صرختُ..

صرخ الجميع..

انقلبوا إلى مساخيطَ بشعةٍ..

ومثل هجوم الزومبي انقضُّوا عليَّ.. أغمدت القرنَ في أقربهم لي.. تفاديتُ انقضاضة أحدهم.. ركلتُ ثالثًا.. دفعتُ رابعًا.. اخترقتُ الباقين مثل سكينٍ في قطعة لحم.. المكان يتهاوى ويهتزُّ كأنما ضربه زلزالٌ بقوة عشرة ريختر.. الأرضُ تتشقق وتخرجُ منها نيرانٌ تطايرت مثل اليرقات.. حممٌ مُلتهبةٌ تزحفُ كالثعابين من بين شقوقِ الجدران الواسعة.. تجاوزتُ كل ذلك بكثيرٍ من الحظِّ والمجهود في الركض والمناورة..

خرجتُ من القاعة ووصلت إلى بداية المدخل.. لمحتُ من بعيدٍ نور القمر يتسللُ مُرتعشًا من خلال فتحةٍ تبدو واسعةً.. لو استطعتُ أن أصلَ إليها فسوف أنجو..

استجمعتُ أنفاسي وجريتُ من جديدٍ.. لا تزال أصواتُ الراكضين تُطاردني.. شعرتُ بأنيابٍ حادةٍ تقبضُ على كتفي باستماتةٍ.. مخالب تُمزق جسدي من الخلف.. رفرفة أجنحة فوق رأسي ولفحة هواء ساخن في وجهي.. ثم سقطتُ.

الفَصْلُ الأَخِيرُ

فتحتُ عينيَّ لأجد شمس الصباح حاضرةً في وجهي تزيل كل ما علق في جسدي وروحي من متاعب.. كان حسن يجلسُ بجواري بينما أنا مُستلقٍ داخل السيارة.. أحسستُ أن ملامحه تبدَّلت للحظةٍ.. حكي لي أنه هبط المقبرة حين سمع صراخي وهناك عثر عليَّ فاقدًا الوعي، ثم استطاع أن يُخرجني بعد أن قرأ بعض الطلاسم والعزائم.

- نجحت!

قالها بعد أن قصصتُ عليه كل ما حدث.. تبقَّى الآن أن نطمئنَ على طاهر.. لم ننتظر أكثر من ذلك وذهبنا له..

حين وصلنا وجدتُ طاهر وقد استعاد عافيته ويجلس على مصطبةٍ حجريةٍ أمام البيت.. لم أصدق ما رأيتُ حتى احتضنته وجاذبته الكثير والكثير من الحديث..

قضيتُ معه بقية اليوم ثم ودَّعته بعد أن أوصيته برعايةِ راجية التي بكت أثناء رحيلي.. في الحقيقةِ أحسستُ بتأثرٍ كبيرٍ حين تركتهما.

حسن انصرف إلى حال سبيله ولا أعلم هل سأراه بعد ذلك أم لا.

عدتُ إلى حياتي الطبيعية..

انشغلتُ قليلًا في عملي قبل أن أقرر أنني أحتاجُ إلى راحةٍ.. حجزتُ تذكرة سفر إلى اليونان..

عندما ركبتُ الطائرة تملَّكني إحساسٌ كبيرٌ براحة الضمير والأمان.. أغلقت نصف عيني تاركًا رأسي يسترخي فوق وسادة المقعد المخملي.. لم أعبأ كثيرًا بنظراتِ الفتاة الجالسة بجواري وهي تتفحصني من أعلى إلى أسفل، مرسلةً لي شفراتٍ ورسائلَ بأنها مُستعدةٌ لتجاذب أطراف الحديث.. تفحَّصتها بنظرةٍ خاطفةٍ بعد برهةٍ قليلةٍ.. صاروخ أرض جو من فئة عابرات القارات..

ساعة مرَّت منذ إقلاع الطائرة.. شعرتُ بالضجر وبالملل.. التفت نحو الفتاة.. كانت مندمجةً إلى حدٍّ ما في تصفُّح الفيسبوك.. سألتُها عن الساعة فابتسمتْ.. أعلم أنها طريقةٌ قديمةٌ لبدء محادثةٍ لكنها نجحت معها وانشغلنا قليلًا في التحدث عن آخر ألبومات الغناء، ثم انتقلنا بعد ذلك للحديث في السياسة وأخيرًا انتهينا إلى الحديث عن حرب فيتنام، قبل أن تنزع حزام الأمان وتستأذن في الذهاب إلى دورة المياه..

مشت الفتاة قليلًا في الممر المُمتد بين المقاعد ثم حدثت ارتجاجةٌ عنيفةٌ في جسد الطائرة كادت تُسقطها لولا أن تشبثت بأحد المساند..

شحبت وجوه الركاب واختلطت صرخاتُهم بصوتِ سرينة الإنذار التي راحت تدوي قبل أن يأتينا صوتُ المُضيفةِ مُجلجلًا بأن يلزمَ جميعُ الركاب أماكنهم.. لو كانت أخبرتنا أننا سنموتُ الآن لكانت أخف وطأ من صرختها المذعورة التي أطلقتها في نهاية تحذيرِها..

ألمح الفتاةَ وهي تُحاول أن تعود إلى مقعدها بجواري مرةً أخرى.. خطواتٌ قليلةٌ فقط هي كل ما كانت تفصلُها حين ارتجَّت الطائرةُ مرةً أخرى لكن أقوى من المرة الأولى بعشرِ مراتٍ على الأقل.. صرخت الفتاةُ وهي تفقد

توازنَها قبل أن يصطدم رأسُها بحافة صندوق الحقائب.. فقدت الوعي في لحظةٍ دون أن تُكمل الآهة التي أخرجتها وسقطت في الممر..

جسدُ الطائرة يميلُ إلى الأمام فجأةً.. تطايرت الحقائبُ والأجهزةُ المحمولة في الهواء ثم سقطت علينا أقنعة التنفس الموجودة أعلى المقاعد..

الصراخُ والهلعُ يشتد من الجميع، والدعواتُ إلى الله بأن يُنجينا يُطلقها أحدُ المُلتحين..

رأيتُ جسد الفتاة يتدحرجُ ككرةٍ ضخمةٍ تاركةً وراءها خيطًا من الدماء.. نزعتُ عني حزام الأمان واستعنتُ بحواف المقاعد حتى وصلت إليها.. حملتها بصعوبةٍ وعدتُ بها مترنحًا.. وضعتُها على مقعدِها وأحكمتُ ربط حزامها حتى لا تسقط ثم وضعتُ قناع الأكسجين حول وجهها وتركتها لمصيرِها.

زجاجُ نوافذ الطائرة يتهشَّم في سلاسةِ سقوط قطع دومينو متراصة على خط واحدٍ.. ضغط الهواء كاد ينتزعني من فوق المقعد.. لم أكن أتخيله بتلك القوة.. أيها الحمقى توقفوا عن الصراخ والذعر.. لا أريد أن أموت وسط كل هذا الغباء..

تنشطرُ الطائرة إلى نصفين كرغيف فينو في قبضة طفلٍ صغيرٍ.. يُمكنني أن أرى النصف الآخر وهو يُودعنا مُشتعلًا بمن فيه من ركاب..

ما تبقى من جسم الطائرة يهوي معي بسرعةٍ مهولةٍ باتجاه التحطم والتمزق على الأرض..

لا أعلمُ إن كان من مات محترقًا أم من سيموت متحطمًا هو الأفضل حظًّا.. الفتاة التي بجواري تنفصلُ عن مقعدها فتصير حرةً طليقةً في الهواء وفي قبضة الموت.. لم أحاول إنقاذها.. من الأساس لا يمكن إنقاذها.. لن ينجو أحد.. حتى أنا.. لا شك في ذلك..

هل أصرخُ الآن.. الأفضل أن أحتفظ بصراخي حتى اللحظة الأخيرة.. أعلم أنها ستكونُ بلا فائدةٍ، ولكن الصرخة الأخيرة هي بمثابة طابع البريد فوق خطاب الموت..

أعتقد أنني نسيتُ شيئًا.. لا يوجد وقتٌ لأتذكره.. لكن ما هو.. الأرض تقتربُ بسرعةٍ رهيبةٍ.. عزرائيل في انتظاري.. أنا خائفٌ.. فلينتظرْ قليلًا.. لمَ العجلة.. ألا يعلم أن العجلة من الشيطان!!.. انحنيتُ إلى الأمام ووضعتُ رأسي بين يديَّ لأحميه..

شيء ما يرتطمُ بجانب وجهي، فيرنُّ صداه داخل أذني ويختلطُ بجزءٍ من جمجمتي التي كادت تتهشم..

مشاهدُ مُتقطعةٌ بالأبيض والأسود لما مررتُ به في الأيام السابقة.. هناك مشهدٌ أغفلتُ عن رؤيته.. كيف فاتني.. وأين كنتُ.. أعتقد أن لحظة الصرخة الأخيرة قد حانت.. ها أنا ذا أطلقها ممتزجةً بآخر أنفاسي، ثم أغمضتُ عينيَّ.

خَاتِمَة

فتحتُ عينيَّ..

القبرُ ليس مُظلمًا مثلما أخبروني..

شعرتُ بدوارٍ عجيبٍ وصداعٍ رهيبٍ يُمزِّقان روحي وعقلي..

تلفتُّ من حولي.. كنتُ مُستلقيًا على بطني فوق بلاط أرضٍ صُلبةٍ غزلت عليها خيوطُ بيت العناكب..

حاولتُ النهوض.. الأرضُ تجذبني إليها كمغناطيس يحولُ دون وقوفي.. تركتُ جسدي وتحسَّستُ الأرضَ الباردة.. كانت عاجية اللون اقتربت من الصفار بفعل الزمن.. هناك لمبة صفراء تقفُ فوق سلك كهرباء مُتحديةً عامل الجاذبية..

أدرتُ وجهـي إلى الأعـلى، نحـو السـقف.. كـرسي خشـبي.. سريـر عليـه جثـة ملفوفـةٌ في الكفـن.. منضـدةٌ صغـيرةٌ عليهـا بضعـة أطبـاق طعـام نصف فارغـة.. لوحـةٌ كبـيرةٌ ثـم أدركـت أنهـا سـجادة.. كل هـذا رأيتـه مُعلقًـا عـلى السـقف.. أي هـراء هـذا..

دقَّ قلبـي بعنـفٍ فضربـتِ الدمـاء في نفـوخ رأسي وكادت تخـرجُ مـن مُقلتـيْ عينـي..

الحـينُ، والحـينُ فقـط أدركـتُ الأمـرَ.. أنـا مُلتصـقٌ في سـقفِ غرفـةٍ مـا.

فتحتُ عينيَّ..

وجـدتُ نفـسي مسـتلقيًا عـلى السريـر وقـد قُيـدت فوقـه بسـيورٍ جلديـةٍ صُلبـةٍ كالحديـد..

حاولـتُ أن أحـرِّك نفـسي لكـن تحريـك هـرم كان أسـهل.. في هلـعٍ سـاءلت نفـسي مـا الـذي يحـدثُ لي وكيـف انتهـى بي الحـال هكـذا.. لقـد كان كل شيء جيـدًا حتـى دقائـق قليلـة أو عـلى الأقـل كنـتُ أمـوتُ في حـادث تحطـم طائـرة كـما يليـقُ برجـلٍ محـترمٍ..

تطلعـتُ إلى السـقف.. أرى آثـار جسـمي مرسـومةً فوقـه.. سـمعتُ أصواتًـا خافتـةً.. لم أعـرف في البدايـة مـا هـي.. ظهـر أولهـا.. جـرذ أسـود ذو أنـفٍ طويـلٍ قـذرٍ.. لمعـت عينـاه وقـد أدرك تمامًـا عجـزي عـن الحركـة.. توقَّـف فـوق صـدري مبـاشرةً.. تبعـه جـرذ ثـانٍ.. ثـم ثالـث.. رابـع.. خامـس.. توقفـتُ عـن العـدِّ.. قبيلـة جـرذان تعـدَّدت أحجامُهـا غطَّتنـي تمامًـا تخدشـني بأظفارهـا الحـادة الخشـنة.. اقشعرَّ جسـدي.. انقبـضَ قلبـي.. صرخـتُ.. وكأننـي أطلقـتُ إشـارة البـدء.. انقضُّـوا عـليَّ يأكلوننـي بـلا رحمـةٍ!

فتحتُ عينيَّ..

رأيـتُ أمامـي ظـلًّا أسـود ضخـمًا راح يتخـذُ شـكلًا آدميًّـا وإن كان شـديدَ النحافـة عـلى نحـوٍ غـير طبيعـي..

اقـترب الظـلُّ مـن جـدار الحجـرة الـذي تمـوَّج عـلى نحـوٍ عجيـبٍ ثـم دخـل فيـه واختفـى..

هـززتُ رأسي وكـدت أن أهشـمه بقبضتـي محـاولًا إخـراج تلـك الأوهـام منـه.. وجـدتُ نفـسي داخـل حجـرةٍ نصـف مُعتمـةٍ ومُلقـى عـلى الأرضِ التـي كانـت بـاردةً مثـل لـوحٍ مـن الثلـج..

نهضتُ بصعوبةٍ شاعرًا بكلِّ عظمةٍ في جسدي تئنُّ من الألم واتجهتُ نحو البابِ المُغلق.. سرتُ بخطواتٍ ضعيفةٍ مترنحةٍ.. أرسلتُ بصري من خلال ثقبِ المفتاح.. شاهدتُ نتيجةً ورقيةً تاريخُها يأتي بعد عامٍ مما هو مفروضٌ.. قبل أن أفكر من جديدٍ رأيتُ راجية تمرُّ في ثيابٍ سوداء ووجهٍ خالٍ من الدماء، فبدت مثل الأموات.. ناديتُ عليها برجاء وتوسُّلٍ.. التفتتْ نحوي بأسى:

- يا خسارتك يا مجدي.. حصل ليك نفس اللي حصل للمرحوم طاهر.

ماذا؟!.. ماذا تقولُ هذه المجنونة.. لقد حرَّرت طاهر وقضيتُ على ملك الجن..

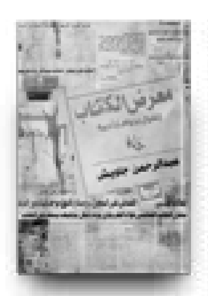
أصابني تيارٌ كهربائي حين أعدتُ التفكير.. الحجرةُ تدورُ من حولي مثل طاحونةٍ هولنديةٍ.. ارتفعت درجةُ جسمي فجأةً.. اكتشفتُ أنني أمسك في يدي علبة الفاليوم.. رفعتها أمامي وأنا مصدومٌ.. أعودُ بشريط حياتي للوراء، إلى حين كنتُ أقفُ على حافة النافذة وحيث هويتُ.. أيُعقل أن كل ما جرى مجرد كابوس لم أستيقظ منه بعدُ أم أنني صرتُ سجين برهوت. أرى أمامي وجوهًا تخبو ثم تبين..

سمعتُ أصواتًا مُتنافرةً تُشبه العواء.. أحسستُ بيدٍ قويةٍ تقبضُ على ذراعي.. نظرتُ إلى صاحبِها وأنا أتهاوى على الأرضِ.. طفتْ فوق عيني غشاوةٌ سوداء.. مُستحيل.. وبكلِّ ما يُوجد لديَّ من قوةٍ صرختُ:

- لا.. لا.. لاااااااااا.

تمَّت

مَحْمُود الجعيدي






تويا
دار تويا للنشر والتوزيع

يحيى


الراحلون
